قلب الظلام

جوزيف كونراد



جـــوزيف كـــونراد

قلـــب الظلام

ترجمة : حرب محمد شاهين

اسم الكتاب : قلب الظلام

المؤلف : جوزيف كونراد

ترجمة : حرب محمد شاهين

موافقة وزارة الإعلام
مديرية الرقابة
رقم : ٧٨٤٣٥
تاريخ : ٢٠٠٤/١٠/٥

مطبعة ابن خلدون- دمشق
٢٠٠٤/١٠٠٠
الناشر : دار المصير- دمشق
هاتف : ٦٣٢٢٧٢٥
جوّال : ٠٩٣١٨١٩٩٨
ص.ب : ٣١١٧٤

نبذة عن المؤلف :

جوزيف كونراد، اسمه الحقيقي جوزيف كونراد كورزينفسكي، كاتب بريطاني من أصل روسي، ولد عام ١٨٥٧، فأمضى طفولته في ظلال الثورة، وقد توفي والداه عندما كان صغيراً جداً، ولمّا بلغ السابعة عشرة من عمره، رحل إلى مرسيليا ليمارس التجارة مبتدئاً عمله هذا بمغامرة بحرية، فعانى من حياة البحر القاسية وتحطم السفن ومن حوادث أخرى.

أصبح في عام ١٨٨٩ من رعايا الدولة البريطانية فرحل إلى لندن عام ١٨٨٩ عندما كان في الواحدة والثلاثين من عمره، لينال قسطاً من الراحة بعد خمسة عشر يوماً أمضاها في البحر، مستغلاً عطلته القصيرة هذه في كتابة رواية بحرية تتحدث عن تحطيم سفينة في الكونغو وحجرة إيداع[1]سكة حديد في برلين وقعت بين (إدوارد جارنيت) والذي قام بإرسالها إلى ناشر لندني، وقد كان كتابه(Almayers Folly) أول عمل له في سلسلة طويلة من القصص والروايات التي غالباً ما اتسمت بخبرته وتجاربه عن حياة البحر مما وضعته في رأس قائمة الأدباء الإنكليز. توفي عام ١٩٢٤.

ومن أهم أعماله:

١- لورجيم
٢- تيفون
٣- قلب الظلام
٤- حماقة المر
٥- حكاية ساحل البحر.
٦- الحظ
٧- الإنقاذ
٨- العميل السري.

(١) حجرة الإيداع: هي حجرة لإيداع القبعات والمعاطف مؤقتاً في مسرح أو غيره.

٩- تحت بصر الغرب.

١٠- الانتصار وغيرها من الروايات.

الفصل الأول

كان المركب الشراعي العائم "نيللي" يتأرجح إلى مرساته بدون ارتعاش أشرعته إلى أن بلغ مأمنه، وقد بلغ غايته بهدوء تام إبّان توجهه نحو النهر دون أن يُحدث طوفاناً متدفقاً أو رياحاً هوجاء وما كان عليه بعد ذلك إلاّ الانتظار حتى ينخفض المد.

إن اتصال نهر "التايمز" بالبحر يمتد أمامنا لنبصر بداية لا نهاية لها ولمجرى مائي في عرض البحر، فنبصر البحر والسماء ملتحمين بلا أي رابط يشدهما إلى بعضهما البعض، ونبصر في الفضاء المغمور بالنور الأشعة منجرفة إلى المد المنتصب كعناقيد قماشية حمراء سميكة تصبغها ومضات برّاقة قوية. وكان الضباب مستقراً على الشواطئ المنخفضة حيث تتسابق إلى عرض البحر بانبساط متلاشٍ،في حين كان الهواء قائماً فوق (Gravesend) ليبدو من الجهة الخلفية كثيفاً بمنظر حدادي كئيب ساكن، يتموضع بلا حراك فوق أكبر وأعظم بلدة على وجه الأرض.

كان مدير الشركة قبطاننا ومضيفنا في نفس الوقت، وقد قمنا أربعتنا بمراقبة خلفيته بعاطفة جيّاشة حين كان واقفاً على شكل منحنٍ بعيداً صوب البحر، وما من شيء يتعلق بالملاحة إلاّ ما يمكن أن نبصره على هذا الجزء من النهر. وقد بدا مرشد سفن يمثل الأمانة والثقة،وكان من الصعب التحقق من طبيعة عمله هنا، عند مصب النهر المغمور، ليقع وراءه في سكينة كئيبة.

يقوم بيننا، كما سبق وأن قلت ـــ عُروة البحر، فعلاوة على أنها استطاعت أن تشد قلوبنا بعضها إلى البعض على الرغم من فترات افتراق طويلة، إلا أنه كان لها الأثر الكبير لتجعلنا نحتمل البعض وبإيمان عميق.

إن المحامي والذي يُعد الأفضل بين الأصدقاء القُدامى، ونظراً لسنواته العديدة وفضائله الكبيرة كان هو الوحيد الذي يملك وسادة، وكان مضطجعاً على بساط وحيد على ظهر المركب، في حين جاء المحاسب بصندوق لعبة الدومينو، حيث كان يلعب

بأحجارها وفقاً لمخطط هندسي معماري، وكان "مارلو" يجلس القرفصاء في الجهة اليمنى من مؤخرة المركب وقد أسند ظهره مزين الصاري[٢].انه بخدين غائرين وبشرة شاحبة وظهر مستقيم يتسم بالزهد، بذراعين متهدلين متجهين نحو الخارج وقد جعلته كل هذه السمات أشبه بتمثال.

شعر المدير بالرضا لأن المركب وصل مرساه بأمان، فاتجه نحو مؤخرة المركب وجلس بيننا،فتبادلنا بعض الكلمات بتباطؤ،وبعد ذلك خيّم صمت ثقيل على ظهر اليخت، ولسبب ما أو غيره لم نستطع أن نلعب الدومينو، فقد شعرنا بالميل للانهماك في التأمل والتحديق، وكان النهار يلملم أذياله في جو من التألق البهيج واللطيف، فأخذ الماء يترقرق بسرعة، في حين بدت السماء صافية تماماً، كامتداد مترامي الأطراف، لطيف معتدل من الضوء النقي الصافي، وبدا الضباب رقيقاً ينشر فراخه فوق مستنقعات (Essex) أشبه بنسيج رقيق مشعٍ من الشاش، وقد لفّ الشواطئ المنخفضة بثنياه الرقيقة. إلاّ أن الظلام ــ من الجهة الغربية التي تحتضن قمة البحر قد ازداد مع مرور كل دقيقة كما لو أنه استشاط غضباً عند اقتراب ضوء الشمس.

وأخيراً غارت الشمس عميقاً بعد انزلاق منحنٍ ومخفي وتحوّلت من لونها الأبيض المتوهج إلى لون قاتم بعد أن فقدت وهجها وأشعتها كما لو أنها خبت بعد أن صرعها الموت عند ملامسة ذلك الظلام الذي يحتضن حشداً من الناس.

سرعان ما طرأ تغيير على المياه وبدا الصفاء أقل تألقاً ولكن أكثر عمقاً، وبدا النهر القديم عند مصبه العريض فاقد الحيوية عند ذيول النهار ورحيله، وذلك بعد إسداء الخدمات الطيبة للناس على مر العصور، للذين اعتادوا أن يرتادوا شواطئه بأعداد كبيرة بين فترة وأخرى، فقد اعتاد أن يبسط نفسه ويمتد بزهو وقور يليق بمجراه المائي حتى يصل إلى أقصى اليابسة. وقد كنا ننظر إلى ذلك الجدول الموقّر، ليس من خلال التورد الفجائي لذلك النهر القصير الذي يأتي وسرعان ما يتلاشى للأبد، ولكن عبر النور المعتبر

(٢) شراع منصوب على الصاري الأقرب إلى مؤخرة المركب

للذكريات الخالدة، وفي الواقع، فما من شيء أسهل على رجل لازم البحر بمودة وتقدير من استدعاء روح الماضي العظيمة فوق لسان نهر التايمز المنبسط.

كان التيار المائي بمده وجزره يجري هنا وهناك مؤدياً خدماته المتواصلة، حافلاً بذكريات الرجال والسفن، ولطالما عانى من زحمة العائدين إلى ديارهم للخلود إلى الراحة، أو من جرّاء تلك المعارك البحرية، وقد ذاع صيته ووقف على خدمة أولئك الرجال الذين تفخر بهم أوطانهم، بدءاً من السيد"فرانسيس دريك" وحتى "السيرجون فرانكلين" وكذلك جميع الفرسان المشهورين والمغمورين، ولطالما احتمل جميع السفن التي تحمل أسماءً شبيهة بالجواهر التي تتلألأ في ليل الزمن بدءاً من (Golden Hind) التي كانت تقفل من جولتها مكتظة باللألأ والمجوهرات على اختلاف أنواعها، والتي قامت جلالة الملكة بزيارتها والتي تشبه الحكايات، ومروراً بـــ (Terror- Erbus) المتعلقة بغزارة بالآخرين والتي لم تعُدْ أبداً والتي لطالما عرفت السفن والرجال وأولئك الذين أبحروا من (Deptford) ومن (Greenwish) ومن (Erith) المغامرين منهم والمستعمرين، وكذلك سفن الملوك وسفن المستكشفين وسفن الرجال والقباطنة والأدميرالات، وأولئك المتطفلين النفعيين في سياق التجارة إلى بلاد الشرق، وكذلك سفن الجنرالات المنتدبين إلى اساطيل الهند الشرقية، ناهيك عن صيادي الذهب أو مطاردي الشهرة، فقد سلك جميع هؤلاء ذلك المجرى المائي شاهرين سيوفهم، وفي أغلب الأحيان مصابيحهم، إنهم رسل القوة من اليابسة حاملين قَبَساً من النار المقدسة، ويا لها من عظمة طغت فوق المد والجزر! ذلك النهر، للتوغل في جوف أسرار أرض مجهولة! والتي شكلت فيما بعد.. أحلام الرجال تلك وبذور مجموعات "الكومنولث" التي شكلت فيما بعد نواة للإمبراطورية.

ما إن غابت الشمس حتى حلّ الغسق على النهر، وبدأت الأضواء تشع على طول الشاطئ، فيما بدت منارة السفن ذات الأرجل الثلاثية (Chapman) متربعة فوق الشاطئ، تسطع بقوة، في حين كانت أضواء السفن تتموّج عبر ممر الميناء، ترتعش بقوة جيئة وذهاباً، نزولاً وصعوداً، في حين نبصر عن بعد من جهة الغرب ـــ فوق اللسان

المنبسط آثار مدينة موحشة الطابع تبدو كنذير شؤم على صفحة السماء، أشبه ما تكون بقطعة من الدّجى، محتضناً أشعة الشمس لتتوهج بشكل ساطع تحت النجوم.

قال"ماريو" فجأة: هذا أحد الأماكن المطلة على سطح الأرض.

لقد كان هو الرجل الوحيد من بيننا الذي ما زال (يتبع البحر) والذي أسوأ ما يمكن أن يُقال عنه بأنه لا يمثل الفئة التي ينتمي إليها، فمع أنه بحار إلا أنه كان جوّالاً أيضاً، وفي حين يعيش معظم البحارة نمطاً خاصاً من الحياة، فإنه يعد الحياة الأخرى خارج البحر مشينة، وهؤلاء البحارة الذين يسيطر على عقولهم البقاء في البيت والنظام المألوف فيه، ويكون بالعادة الوطن سفينتهم والبحر موطنهم وجميع السفن تتشابه، والبحر هو البحر أينما كان وحيثما حل وتلك بيئة ثابتة غير قابلة للتغيير، وتبدو الشواطئ الغريبة والوجوه الغريبة وتبديل نمط الحياة، هي مأربهم الذي يصبون إليه ويسعون لبلوغه، وينساب طموحهم دائماً إلى أبعد من ذلك، و قد لا يحجبهم عنها لغز ما، بل قد يكون الجهل المقيت، وما من لغز غامض بالنسبة للبحّار فيما عدا البحر نفسه، وهو وحده سيد وجوده وهو بالتالي من يستحوذ على اهتمامه ومغلق في وجهه كالقدر نفسه.

وإذا ما فكر بالخلود للراحة، فإنّ نزهة طارئة أو مرحاً صافياً طارئاً على الشاطئ، يكون كفيلاً ليكشف له عن سر القارة بأسرها، وغالباً ما يكتشف بأنّ هذا السر لا يستحق كل هذا العناء، حيث تنطوي حكايات البحارة وقصصهم على سذاجة مباشرة كالمعنى الكلي الذي يستقر داخل قشرة الجوز المشقوفة، ولكن "مارلو" لم يكن ينضوي تحت هذا النموذج إذا ما استثنيا ميله في سرد الأقاصيص وتلفيقها، وهو يعتقد بأن لا معنى للحدث الصغير في الداخل كما في النواة، ولكنه يكمن في الخارج بحيث يغطي الحكاية التي تم نقلها تماماً كما ينبعث التوهج عبر الضباب المخيف، فهو أشبه بالهالة الضبابية التي تبدو جلية بواسطة الإضاءة الطيفية لضوء القمر.

إن ملاحظته لا تثير الدهشة إطلاقاً، فهي تشبه "مارلو"، وقد استقبلت بسكون مطبق، وما من أحد أزعج نفسه عندما قال لتوّه وببطء بائن:

ـ لقد كنت أفكر بالأزمان الغابرة، عندما وصل الرومان هنا أول مرة، كان ذلك منذ ألف وتسعمائة سنة ،وفي ذلك اليوم...ثم انبعث الضوء من ذلك النهر، أقلتَ الفرسان؟ نعم، ولكن كان ذلك كلهب مندفع يتموج على سهل، كومضة برق تنساب من قلب الغيوم، إننا نعيش في اضطراب وربما سنبقى كذلك ما دامت الأرض مستمرة في دورانها، ولكن الظلام كان سائداً بالأمس هنا، فتخيّل حينئذ شعور قائد سفينة رائعة. ولكن ماذا تسمونها؟ الثلاثية في البحر المتوسط والذي صدرت إليه الأوامر بالتوجه فوراً إلى الشمال، فيتجه براً ليجتاز بلاد الغول (Gauls) بالسرعة القصوى، ليكون مسؤولاً عن أحد هذين الفيلقين، لا بد أن يكونوا رجالاً ماهرين والذين قد أُستخدموا بالبناء لمئات المرات خلال شهر أو شهرين إذا استطعنا أن نصدق ما نقرأ. ولعلني أتخيّله هنا، في نهاية هذا الكون حيث يكون هذا البحر الرصاصي اللون بسمات دخانية اللون، كسفينة صلبة من نوع خاص كما الكونوتينة[٣]، صاعداً مجرى هذا النهر، مزوداً بالذخيرة، محمّلاً بالأوامر أو بأي شيء يخطر على بالك، قرارة رملية ومستنقعات وغابات ومتوحشون. والترير من الطعام الذي يليق برجل متمدن، ولا شيء فيما عدا مياه التايمز لتشرب منه ، وينعدم هنا النبيذ"الفالرني" وما من سبيل إلى الشاطئ، ويقبع هناك وهنا مخيم عسكري غائر في بقعة جرداء أشبه بإبرة ضائعة في كومة من القش، حيث البرد والضباب والعواطف والمرضى والمنفى وحتى الموت، ذلك الموت الذي يتسلل خلسة في الهواء ويترلق في الماء وفي شجيرة.

آه، لا بد أنهم كانوا يموتون كالذباب! آه، نعم، لقد أنجزه ذلك، أنجز على اكمل وجه، أنجزه بلا تردد ولا تفكير.. إلاّ في ذلك اليوم الذي اخذ يتفاخر به بعد ذلك وبما قام به في عصره، لقد كانوا رجالاً بما تعني هذه الكلمة من معنى، قادرين على مواجهة الظلام، ولربما قد شعر بالبهجة حين كان يتحين فرصة سانحة للحصول على ترقية في الأسطول في رافنا مستقبلاً، أو فيما لو حصل على أصدقاء مخلصين في روما، وأن يقاوم

[٣] ضرب من الأوكورديون.

هذا الطقس المرعب، ولقد فكر بمواطن شاب محتشم بطبعه، فقد يكون ذلك نافعاً، وكما تعلم، لقد أتى إلى هنا بقطار كجابي ضرائب أو كتاجر أو حتى ساعٍ وراء الثروة، بأرض سبخة، متنقلاً عبر الغابات وفي بعض المحطات التجارية التي تفوح منها الوحشية، الهمجية المفرطة وقد حاصرته من كل جانب، فكانت حياة غامضة تكتنفها الألغاز، حياة الوحشية البدائية التي تتحرك مهتاجة في جوف الغابة وفي الأدغال وحتى في قلوب الرجال القساة، وما من وجود لأية معرفة طقوسية داخل هذه الأسرار القدسية، وكان عليه أن يعيش في هذا الوسط المبهم الذي سبر غوره والذي يُعد مقيتاً أيضاً، وقد تملّك أيضاً افتتانها الذي اثّر فيه كل التأثير،ففتنة الشيء البغيض -كما تعلم- تصور حالات الندم المتنامية، التّواقة إلى الهروب، إلى الاشمئزاز المتهور، إلى الاستسلام والكراهية!

توقف قليلاً!بدأ من جديد ليقول:

لاحظ! قال ذلك رافعاً ذراعه من مرفقه موجهاً راحة اليد خارجاً، جلس القرفصاء كما كان بوذا يلقي بمواعظه وتوجيهاته، مرتدياً الملابس الأوروبية ولكن بدون زهرة اللوتس،-لاحظ- ليس بمقدور أي منا أن يشعر الشعور نفسه كما كان هو وأن ما يُنقذنا تلك القدرة الفعالة، فالحب كل الحب لتلك القدرة، ولكن هؤلاء الشبان لا يمكن أن يُقام لهم بالواقع أي وزن، فهم لم يكونوا مستعمرين، حتى أن إدارهم ما كانت إلا مجرد مأزق ولا أكثر من ذلك حسماً أظن، لقد كانوا غزاة، وعندما تكون غازياً فإن ما تحتاجه هو القوة الهمجية فقط، وما من داعٍ للتباهي أو التفاخر عندما نملكها ونحصل عليها من حادث مفاجئ قد انبثق من ضعف الآخرين، لقد سلبوا بالقوة، فقط ما كان بإمكانهم الحصول عليه لأجل ما يتطلب الحصول عليه، لقد كان سلباً مفعماً بالقوة وقد استبد الأمر لينتهي إلى جريمة بلا حدود، وقد تقبّلها الناس بالعمى دون أن يبصروها، كمن يكون مناسباً للذين يحبّذون التعامل في الظلام.

إن احتلال الأرض والذي يعني غالباً سلبها من أولئك الذين يختلفون عنا في البشرة، أو الذين يملكون انوفاً أكثر انبساطاً من أنوفنا، ولن يكون لائقاً عندما تتمعن فيه، ولعل

الاسترسال في التأمل الباطني لذلك ما هو إلا مجرد خاطر عابر، مجرد فكرة كامنة وراء ذلك، يكون ذلك متعلقاً بادّعاء عاطفي وحسب، بل إن ذلك يحتاج إلى تفكير حقيقي وباعتقاد فعلي ضمن هذا التفكير، وحينئذ يكون شيئاً ذا قيمة يمكن التعامل معه وتنحني أمامه احتراماً، وتكون مستعداً للتضحية من أجله.

لقد كان مضطراً للتوقف عن حديثه حين انساب اللهب عبر النهر، لهب أحمر أخضر أبيض صغير يلاحق بعضه البعض، ويتسابق مع بعضه البعض، لينضم إليه لهب آخر ويتقاطع معه، ثم يعود ذلك اللهب لينفصل عن غيره من اللهب حثيثاً أو بطيئاً، في حين لم تتوقف حركة النقل الخاصة بالمدينة الكبيرة في أعماق الليل المبهم فوق نهر يلّون ملامحه السهاد والقلق، فما كان علينا إلا أن ننتظر بصبر وأناة، إذ لم يكن بمقدورنا سوى انتظار نهاية هذا المد، وأخيراً وبعد أن انقضت فترة طويلة من الصمت عاد ليتحدث بصوت متلعثم:

ــ أظنكم أيها الأصدقاء، ما زلتم تذكرون، أنني قدمت لبحار الماء العذب طمعاً في أمر تافه، وأنكم تعرفون بأننا كنا ملزمين قبل تحول المد لنسمع عن إحدى تجارب مارلو المقلقة. ثم أردف: لا أريد أن أزعجكم بالمزيد من الحديث عمّا حدث لي شخصياً.

بدا حديثه ليشير إلى حال ضعف الكثير من رواة الحكايات الذين لا يدركون الأشياء التي يحب المستمعون أن يصغوا إليها فقال:

ولكي تدركوا أهمية الأمر ومدى تأثيره عليّ، يترتب عليكم أن تعرفوا كيف وصلت إلى هنا، وماذا صادفت، والسبيل الذي صعدت به إلى ذلك النهر حتى وصلت المكان الذي التقيت فيه ذلك الشاب المسكين، ولقد كانت أبعد نقطة للملاحة وأقصى حد لتجربتي الشخصية، فبدا الأمر ضرباً من إلقاء الضوء على كل شيء يدور حولي وحتى في عمق أفكاري وقد كان الأمر معتماً جداً ومثيراً للشفقة أيضاً وليس استثنائياً على أي حال، بل إنه لأمر غامض كل الغموض، ومع ذلك يبدو وكأنه إلقاء الحقيقة على هذا الواقع بالذات.

عدت كما تذكرون إلى لندن بعد اجتياز المحيط الهندي والمحيط الهادئ وبحار الصين وجرعات مستقرة من الشرق، وقد استغرق ما يقارب ست سنوات، لقد كنت أتجوّل بلا هدف وأزعجكم أثناء عملكم وأسبب لكم التأخير،وقمت باجتياح منازلكم وذلك لأنني كنت أحمل رسالة سماوية لجعلكم أناساً متحضرين، لقد كان ذلك وقتاً جميلاً ولكني سرعان ما شعرت بالملل بعد استراحة طويلة، وكان عليّ أن أبحث بعد ذلك عن سفينةوكان ذلك برأيي أصعب عمل قمت به،ولكن السفن نفسها لم تعرني أي اهتمام، وحتى أنا نفسي سئمت أيضاً من تلك اللعبة.

أقول لكم الآن، عندما كنت شاباً، كان لديّ رغبة شديدة بالخرائط، فقط كنت أمضي الساعات أتأمل خريطة أمريكا الجنوبية أو أفريقيا أو استراليا، وكنت أغوص بأحلام مليئة بأمجاد الرحلات الاستكشافية، لقد كان يوجد في تلك الأيام مساحات شاسعة للفقراء على وجه الأرض، وما إن وقع بصري على موقع متميز على الخريطة بدت جميعها متشابهة، فوضعت إصبعي عليه وقلت لنفسي:

ـــ عندما أكبر، سأذهب إلى هناك، وما زلت أذكر أن القطب الشمالي كان أحد هذه الأماكن، ومع ذلك فإنني لم أقصد ذلك المكان أبداً، ولن أحاول الآن، ولقد تلاشت الآن تلك الفتنة! وإن ثمة أماكن أخرى مبعثرة حول خط الاستواء وعلى مسافات مختلفة وهي متناثرة فوق سطحيْ نصفي الكرة الأرضية، لا بأس، ونريد أن نتحدث عن ذلك، ولكن ما زال يوجد مكان واحد لعله الأكبر والأكثر هجراناً، وإذا صح التعبير فهو الذي أثّر فيّ أكبر تأثير وجعلني أتوق إليه توقاً شديداً،ولكنه لم يعد الآن المكان الأكثر حدْباً.

ومع أنني حشوت ذاكرتي منذ طفولتي بمعلومات وفيرة عن الأنهار والبحيرات والأسماء، إلا انه لم يعد مفعماً بأسرار مبهمة ومسرة، فقد بدا أشبه برقعة بيضاء بالنسبة لصبي يافع مسترسل في الأحلام المكتظة بالأمجاد، وقد عاد المكان مظلماً من جديد، لكنه يضم نهراً كبيراً جباراً حيث يمكن رؤيته على الخارطة بأفعى ضخمة مفككة يقع رأسها في البحر، بينما يتجه الجسم منحنياً إلى مسافة بعيدة، في حين يغوص ذيلها في أعماق

اليابسة، لقد جذبتني إليها وأُفتتنت بها،تلك الخريطة المعلقة داخل واجهة المعرض في المحل،ولقد جذبتني كما تفعل الأفعى مع عصفور ولكن عصفوراً أحمقاً، ثم سرعان ما تذكرت تلك المؤسسة الكبيرة، وهي شركة تهتم بالتجارة المتعلقة بذلك النهر، فقلت لنفسي:

ـــ لن يكون بمقدورهم ممارسة أعمالهم التجارية تلك دون استخدام نوع معين من المراكب على وجه هذه المياه العذبة ـــ السفن التجارية ـــ فتساءلت:

ـــ لماذا لا أحاول استلام قيادة إحدى هذه السفن، فحملت نفسي وذهبت فوراً إلى Fleet Street ،ولكني لم أستطع أن أتولّى قيادة واحدة، لأن الأفعى جذبتني، وقد قالوا لي:

ـــ إنها مؤسسة قارية كما تعلم، تلك الشركة الاجتماعية، ولكن لي علاقات عدة داخل هذه القارة، وأضافوا بأنها قليلة الكلفة وتبدو تافهة جداً.

قد يكون من المؤسف بالنسبة لي أن أقول باني بدأت أضايقكم، وقد كان ذلك أول سفر لي،و لم اكن معتاداً على معالجة الأمور على هذا النحو كما تعرفون، فقد كان من عادتي أن أسلك دربي الشخصي، وكنت أستخدم قدميْ الاثنين فقط إلى حيث أريد، مع أنني أنا نفسي لم أكن واثقاً من هذا الأمر،بل راودتني فيما بعد فكرة الوصول إلى هناك بأية وسيلة، فبدأت أزعجهم، مما حدا بالرجال أن يقولوا لي:

ـــ أيها الرفيق العزيز! لكنهم لم يفعلوا شيئاً من أجلي،هل تصدقون ذلك؟ فلجأت إلى تجريب النساء، أنا "تشارلي مارلو" توجهت إلى النساء لمساعدتي لأحصل على عمل. يا للسماء! لا بأس، وكما ترون فقد تملكتني هذه الفكرة، لقد كان لي خالة متحفزة الروح عزيزة على قلبي وقد كتبت لي:

- سيكون الأمر سراً، إني على استعداد أن أفعل أي شيء من أجلك، أي شيء ! إنها فكرة رائعة!

" إنني أعرف زوجة لشخصية مرموقة ذات مقام رفيع في الإدارة، وأعرف أيضاً

رجلاً ذا نفوذ كبير... الخ"، لقد قررت أن تفعل المستحيل لتعيّني ربان قارب بخاري ما دامت هذه رغبتي.

حصلت بالفعل على وظيفة، وحصلت عليها بسرعة فائقة، فقد تلقت الشركة نبأً مفاده أن قبطانها قد مات قتلاً إثر شجار عنيف جرى مع بعض السكان المحليين،فكانت تلك فرصتي السانحة، ولكن ذلك اقلقني جداً لدى قيامي بخطة الرحيل الأولى، وقد قمت بمحاولة استرداد ما بقي على الحياة.

ـــ بعد شهور وشهور، بلغني أن سبب المعركة الحقيقي نجم عن سوء فهم تفاقم أمره بسبب بعض الدجاجات، دجاجتين سوداوين!

لقد كان اسم ذلك الزميل Fresleven، ينحدر من أصل دنماركي، والذي اعتقد بداخله بأنه قد خدع في صفقة تجارية، لذا حمل نفسه واتجه لشيخ القرية لينهال عليه ضرباً بعصاه، آه! لم أُدهش لسماع هذا النبأ، وقد أُخبرت في نفس الوقت بأن Fresleven كان الأكثر رقة وهدوءاً من أي مخلوق يمشي على قدمين، وما من ريب في ذلك، فقد قدم إلى هنا منذ سنتين وكان يلتزم بقيم نبيلة وسامية، ولربما شعر بأنه بحاجة إلى أن يثبت وجوده بطريقة أو بأخرى، ولهذا السبب انقضّ على الزنجي العجوز بلا شفقة في حين كان يراقبه العديد من أتباعه مصعوقين، إلى أن تقدم منه رجل سمعت فيما بعد أنه ابن شيخ القرية، وقد سيطر عليه الشعور باليأس ليصبح أسير اندفاع متهور لدى سماعه صراخ الرجل العجوز، فحاول أن يطعن الرجل الأبيض برمحه، ولقد تمكن بالفعل وبسهولة من إصابة الموقع القائم بين عظام الكتف، فهرب حينئذ جميع أهل القرية إلى قلب الغابة، متوقعين حدوث عواقب وخيمة، في حين سيطر الرعب على المركب، بالإضافة إلى الفوضى والاضطرابات التي عمّت.

لم يبدِ أي بحار اهتماماً بـــ Fresleven فاتجهت إليه وانتعلت حذائيه، ولكن وعندما أتيح لي لقاؤه، تبين لي بأن العشب قد غار وترعرع عبر أضلاع صدره، وقد امتد كثيراً لدرجة أنني لم أستطع رؤية عظامه، لقد كان الجميع هنا وبدا لي وكأن الكائن

الخارق للطبيعة لم يُصب بأذى عند سقوطه وبدت القرية مهجورة تماماً من ساكنيها، في حين بدت الأكواخ سوداء متعفنة، مائلة للانحراف ضمن أسوار متداعية حلّت عليها الكارثة، وهذا أمر ضمني، فقد اختفى سكانها وأصبحوا أثراً بعد عين، لقد بعثرهم رعب مجنون: رجالاً ونساءً وأطفالاً.

لقد بعثرهم عبر الأدغال و لم يعودوا أبداً،وحتى الدجاجات لم أعرف ماذا حلّ بها، وأظن أن التقدم قد قضى عليهم جميعاً، ولكن مهما يكن من أمر فقد حصلت على وظيفتي من خلال هذه القضية المجيدة، وذلك قبل أن أبدد الوقت مترقباً الحصول عليها بأمل ولهفة.

اندفعت كالمجنون لأهيئ نفسي، فلم يمض ثمانية واربعون ساعة حتى بدأت أجتاز بحر المانش إلى أصحاب العمل وتوقيع عقد اتفاق، وما هي إلا ساعات قليلة جداً حتى وصلت إلى المدينة، وأعتقد أنها ضريح مطلي باللون الأبيض،ومما لاشك فيه وهذا حكم سابق لأوانه لم أجد صعوبة في التعرف على مكاتب الشركة، فهي أكبر بناية في المدينة، وأن كل شخص التقيته كان فخوراً بها، وقد بدوا وكأنهم يعملون لتأسيس إمبراطورية ما وراء البحار لتحصيل مبالغ طائلة عن طريق الأعمال التجارية.

وقع بصري على شارع ضيق ومقفر يغمره ظل عميق بالإضافة إلى بيوت عالية ونوافذ لا تُحصى، مزينة بحاجات فينيسية، في حين خيّم صمت مطبق كصمت القبور، وإلى العشب الذي نبت ونما بين الأحجار وإلى حاضن مهيب لمداخل تعلوها القناطر عند اليمين وعند اليسار، وإلى بابين ضخمين مزدوجين يقفان بوزنهما الثقيل، مفتوحين قليلاً، فتسللت عبر أحد هذين الشرخين، صعدت درجات سلم مكنسة تماماً غير مزخرفة وقاحلة كالصحراء، ففتحت الباب الأول ولما وصلته التقيت بامرأتين، الأولى سمينة والثانية نحيلة، وكانت كل واحدة تجلس على كرسي ذي مقعدة مصنوعة من القش، يغزلان الصوف الأسود، نهضت المرأة النحيلة واقتربت مني و لم تتوقف عن غزل الصوف وعيناها لا تفارقان الخيوط، اتجهت إليّ مباشرة فخطر ببالي على الفور، الابتعاد عن

طريقها كما لو إنني إزاء شخص مروّض، وقفت جامدة ورمقت بصرها وكانت ترتدي ثوباً بسيطاً خالياً من الزخرفة كغطاء مظلة تماماً.

استدارت دون أن تنبس ببنت شفة وسبقتني إلى غرفة الانتظار، فذكرت اسمي على مسمعها وألقيت نظرة فاحصة على المكان لأشاهد طاولة ضخمة في الوسط ومقاعد بسيطة تنتشر على محاذاة الجدران، وعلقت عند الطرف الأخر من الغرفة خريطة كبيرة ساطعة مزودة بجميع ألوان قوس قزح، ولكن اللون الأحمر كان اكثر وفرة مما جعله شيئاً مريحاً للنظر، مما يجعل المرء يدرك لدى رؤيته بأن عملاً حقيقياً قد أُنجز في هذا الموقع بالذات... ناهيك عن التعادل في كمية الألوان مع اللون الأزرق مع قليل من الأخضر و لطخات من اللون البرتقالي، في حين ظهرت على الشاطئ الشرقي رقعة أرجوانية اللون لتشير إلى وجود رواد التقدم المرحين وهم يحتسون البيرة المنعشة المعتقة، غير أنني لم أُشد لأي لون من هذه الألوان، إلا أنني وجدتها مشدودة إلى اللون الأصفر، فبدا الموقع قاحلاً ماحلاً في الوسط، فيما ظهر النهر هناك منطوياً على فتنة وسحر مفرط، ميتاً كأفعى.

وفجأة فتح الباب،فوقع بصري على رأس السكرتير يعلوه الشعر الأبيض، إلا أن ملامح ود وعطف ترتسم على وجهه، أومأ إليّ بسباته النحيلة كي أدخل إلى حرمه المقدس، حيث كان الضوء ضعيفاً باهتاً، شاهدت في الوسط طاولة كتابة ثقيلة الوزن تبدو وكأنها تجلس القرفصاء، وقد برز من وراء هذه البنية انطباع يتسم بالسمنة الشاحبة التي يغلفها رداء طويل أشبه برداء الربّان، ويبدو أنه الرجل الكبير نفسه والذي يملك ثروة وفيرة تتجاوز الملايين. صافحني، فقلت متمتماً بنبرة غامضة، معبراً عن إلمامي باللغة الإفرنسية:

ــ رحلة موفقة.

وجدت نفسي خلال خمس وأربعين ثانية في غرفة الانتظار مرة أخرى مع السكرتير الشفوق، الذي طلب مني بأسلوب مفعم بالكآبة واللطف، أن أوقع على وثيقة، فاعتقدت بأنني تعهدت في توقيعي هذا على عدم البوح بمعاملات تجارية سرية الطابع، بالإضافة إلى

أشياء أخرى، حسن، لن أرتكب مثل هذه الأخطاء. بدأت أشعر بالقلق، إذ أنني ـــ كما تعلمون ـــ لست معتاداً على هذه المراسيم الاحتفالية، ولقد أحسست بنذير شؤم في هذا الجو، فقد بدا لي كأنني أتعرض لمكيدة ما، وثمة شيء ما لم يكن على ما يرام، مما جعلني أشعر بالارتياح عندما خرجت من هذه الحجرة.

كانت المرأتان، في الغرفة الخارجية ـــ تغزلان الصوف الأسود بجد وحماس، وعندما اتصل بعض الأشخاص، اتجهت المرأة الأصغر إلى الوراء لتقديمهم إلى المسؤول في الشركة، في حين كانت المرأة الأكبر تجلس على الكرسي حيث أسندت جفنيها على مدفئ القدمين، بينما جلست القطة بارتياح على حضنها، وكانت العجوز تعتمر قبعة منشأة بيضاء اللون بثؤلول على أحد خديها فيما تدلت من مقلب الأنف نظارات فضية الإطار، فرمقتني بنظرة من فوق نظاراتها، نظرة خاطفة جامدة عديمة الاكتراث مما ادخل الاضطراب في نفسي، وأقتيد في الوقت نفسه شابان يتميز وجه كل منهما بملامح حمقاء مرحة، فرمتهما بالنظرة الخاطفة نفسها، بنظرة تنطوي على حكمة لا مبالية، وقد بدت وكأنها تعرف كل شيء عنهما وعني أيضاً، فبدت لي غريبة خارقة للطبيعة نذيرة شؤم محتوم، وحتى بعد أن رحلت بعيداً فغالباً ما كانت تخطر ببالي هاتان المرأتان اللتان تحرسان باب الظلام وتغزلان الصوف الأسود لأجل غطاء النعش الدافئ:

فالأولى تُدخل الناس، تدخلهم بلا انقطاع إلى المجهول. في حين تمعن الثانية النظر وتدقق في الوجوه المرحة الحمقاء فترمقها بعينين عتيقتين لا مباليتين.

فسلاماً، حابكة عجوز تغزل الصوف الأسود، وداعاً أيها الموتى، فالكثيرون من هؤلاء لن يشاهدوها ثانية، وإلى الأبد، فقد يبلغ النصف أثناء هذه الرحلة الطويلة.

لقد كان عليّ أيضاً القيام بزيارة الطبيب، وكانت تلك إجراءات عادية وبسيطة، وهذا ما أكده لي السكرتير حين اخبرني ذلك بنبرة تنطوي على روح المشاركة في كل أحزاني، وبناءً على ذلك فقد جاءني شاب يعتمر قبعة فوق حاجبيه الأيسر ـــ أظنه كاتباً، حيث يوجد العديد من الكتّاب في أعمال تجارية كهذه، مع أن هذه المؤسسة التجارية

هادئة، أشبه بمؤسسة تقع في مدينة الموتى، لقد جاءني ـــ ربما ـــ من الدور الأعلى وقادني إلى المكان المنشود وكان رث الثياب ومهملاً... مع بقع من الحبر على كميّ سترته، في حين بدت ربطة عنقه واسعة ومنتفخة تحت ذقن مروّس كمقدم جزمة عتيقة.

يبدو أن الزيارة كانت مبكرة جداً بالنسبة للطبيب، فاقترحت عليه أن نتناول مشروباً ما، فبدا مغتبطاً جداً لمثل هذه الدعوة، وما إن جلسنا لنتناول بعض الخمرة حتى انطلق يمجّد أعمال الشركة التجارية، فعبرت له عن دهشتي وسألته:

ـــ لماذا لم تبحر إلى تلك الأصقاع؟

أصبح بارداً جداً ثم لملم ذاته ليجيب.

ـــ إنني لست أحمقاً إلى هذه الدرجة، كما أبدو للآخرين، ذلك ما قاله أفلاطون لتلاميذه.

قال ذلك بلهجة الواعظ المتفاخر مفرغاً كأسه في جوفه بعزم ثابت، ثم انصرفنا.

قام الطبيب العجوز بجس نبضي، مع ثقتي بأنه كان يفكر في تلك الأثناء بأمور لها علاقة بوضعي الحالي، فتمتم:

ـــ لا بأس هذا جيد.

ثم سألني بلهفة وتودد لو كنت أسمح له بأن يقيس رأسي، ـــ ومع أن هذا السؤال قد أدهشني إلا أنني أجبته بنعم، فتناول على الفور شيئاً يشبه المسماك واندفع يأخذ القياسات من الخلف والأمام وجميع الجهات، مسجلاً ملاحظاته بعناية فائقة.

لقد كان رجلاً قصير القامة، لم يحلق ذقنه، يرتدي معطفاً مهترئاً أشبه بوزرة، وكان ينتعل خفين، فبدا لي رجلاً مجنوناً غير مؤذٍ ثم استطرد قائلاً:

ـــ إني أطلب دائماً السماح ـــ خدمة للعلم ـــ قياس جمجمة من يرحلون إلى الأصقاع البعيدة.

سألته: وعندما يرجعون أيضاً؟

فأجاب بعبارة تسترعي الاهتمام:

ــ آه، لم أرهم بعد ذلك، علاوة على أن التغيرات تحدث في داخل الإنسان كما تعلم.

ابتسم قليلاً وكأنها نكتة رقيقة هادئة ثم استطرد:

ــ إذاً، أنت أيضاً عازم على الإبحار من اجل الشهرة والمتعة؟

توقف ليرمقني بنظرة فاحصة ثم سجل ملحوظة أخرى بلهجة عادية غير مجردة من العاطفة.

ــ أتوجد حالات جنون بين أفراد عائلتك؟

ألقى بسؤاله كالواثق من نفسه فشعرت بانزعاج شديد وسألته:

ــ ألذلك السؤال اهتمام يتعلق بالعلم؟

فأجاب متجاهلاً عصبيتي:

ــ هذا أمر ممكن حدوثه، وقد يكون أمراً مثيراً حقاً أن تراقب التغيرات الفعلية للأفراد أثناء حدوث ذلك مما يعود بالفائدة على العلم.

قاطعته محتداً:

ــ أأنت طبيب أمراض عقلية؟

رد بهدوء ورباطة جأش: على كل طبيب أن يكون ملماً بعض الشيء بالأمراض العقلية، فأنا شخصياً لديّ نظرة محددة، بحيث يترتب عليكم أنتم أيها السادة الذين تبحرون إلى الخارج أن تساعدوني على إثباتها، هذا نصيبي فقط من الفوائد التي تجنيها بلادي بحكم هذه التبعية لسلطتنا.

ــ يا لها من تبعية رائعة!

أمّا الثروة فأتركها للآخرين، أعذروني على أسئلتي هذه، إنك أول رجل إنكليزي يخضع لفحوصي...

فقاطعته مؤكداً: ولكني لست النموذج المتشرد على أية حال، واستطردت لو كنت فعلاً على مثل هذا النحو لما خاطبتك على هذا الشكل. فردّ عليّ مؤكداً:

ـــ إن ما تدعيه لهو عميق وبعيد النظر وقد يكون خطأً. تفوّه بهذه الكلمات وهو يضحك، ثم تابع يقول:

ـــ تجنب "النرفزة" أكثر من تعرضك للشمس، وداعاً ولكنكم الإنكليز كيف تلفظون ذلك؟

آه وداعاً!(Good bye - Good bye) فعلى المرء في المناطق الاستوائية أن يحتفظ بالهدوء... قبل أي شيء. الوداع (لفظ ذلك بالافرنسية). Du Calme du Calme Adieu

بقي شيء واحد لابد من القيام به، توديع خالتي الرائعة التي وجدتها تزهو بالنصر، قدمت لي فنجاناً من الشاي، آخر فنجان شاي مناسب لعدة أيام، وفي غرفة يغلب عليها الذوق الرفيع لسيدة فاضلة، غرفة تتوقعها لفنانة، كان لدينا حديثاً طويلاً هادئاً ممتعاً بالقرب من النار، وخلال الحديث تبين لي بأني قُدمت لزوجة شخصية مرموقة، والرب وحده يعرف عدد الأشخاص الذي يتوددون إليها.

لقد قُدمت لشخصية استثنائية وموهوبة وأصبحت نعمة وأية نعمة لهذه الشركة وكأنني إنسان لا يمكن العثور عليه في أي وقت.

يا للسماء! وسوف أُكلف مع ذلك بقيادة مركب نهري تافه مزود بصافرة لا تساوي شيئاً، ولقد بدا لي على كل حال بأنني كنت واحداً من أولئك العمّال ذوي رأس المال، كشيء ما، أشبه برسول نور، شيء ما أشبه بالمصير المشؤوم لأية داعية.

اندفعت بعد ذلك تلك المرأة الرائعة تتحدث عن القناعة بتلك الملايين الدالة على الجهل حول أساليبهم المخيفة البغيضة، ومّما لاشك فيه، فإنها جعلتني اشعر في نهاية الأمر بالضيق والحرج، فوجدت الجرأة في نفسي لأقول:

ـــ تجني الشركة أرباحاً من وراء عملها التجاري. فقالت لي وقد تهلل وجهها بالسرور:

ـــ لقد نسيت يا عزيزي تشارلي بأن العامل الكادح يستحق المكافأة.

بدا لي بأنه من الغريب فعلاً أن يكون المرء بعيداً عن تأثير النساء الصادقات، فهن يعشن في عالمهن الخاص الذي لا يوجد مثله ولن يوجد أبداً، ولعلّه في غاية الروعة والجمال، وإذا ما حاولن القيام بعمل ما فإنه يتحوّل إلى أشلاء مبعثرة مع أول غروب للشمس، أمّا نحن الرجال، فكلنا نعيش منذ بدء الخليقة برضا وقناعة، إلى أن قررنا البدء في الأعمال المختلفة، فقلبنا كل شيء رأساً على عقب.

احتضنتني خالتي بعد ذلك وطلبت مني أن ارتدي «الفلانيله»[٤] وأن لا أتوانى عن كتابة الرسائل وأخيراً رحلت. راودني وأنا في الشارع شعور ـــ لا أدري سببه ـــ شعور غريب بأني رجل مدّعٍ دجّال، وياله من أمر غريب كل الغرابة، لقد أُصبت بالارتباك عندما انتابني هذا الشعور المفاجئ، ولعل أفضل طريقة لتوضيح ذلك هو القول التالي:"الثاني أو الاثنتين" شعرت بأني متجه الآن إلى مركز الكرة الأرضية بدلاً من مركز القارة.

غادرت على متن باخرة فرنسية كانت تجتاز ميناءً إلى ميناء معلنة عن أسماء الموانئ التي تزورها،وقد تمكنت من مشاهدة الجنود النازلين وكذلك الضباط القاصدين بيوتهم، وكنت أقوم بمراقبة الساحل، ولعلّ مراقبة الساحل وهو ينساب مع مرور السفن لهي أشبه بالتفكير في أحجية ما، إذ يمكنك أن تشاهد قبالتك: الابتسام والعبوس والدعوة والعظمة أو الوضاعة وقد تبدو تافهاً أو متوحشاً، ويبدو دائماً كتوماً مع الميل إلى الهمس، هيّا أدن واكتشف، ذلك الساحل خاملاً جامداً، ناهيك عن مظهره الكالح الرتيب، ويوجد أيضاً أدغال ضخمة بلونها الأخضر الداكن جداً لدرجة كانت تبدو معها سوداء داكنة، وقد هدبت بالأمواج المتكسرة على الشاطئ وبدت مندفعة بخط مستقيم، أشبه بخط خطته مسطرة، حيث يمتد إلى مسافة بعيدة.. بعيدة جداً على أطول بحر أزرق بدا لمعانة غائماً بسبب ضباب رقيق زاحف، وفي حين كانت الشمس موحشة،بدت اليابسة تتلألأ وتتقاطع مع البحار، وتنتشر هنا وهناك بقع رمادية بيضاء، بدت متحلقة كالعناقيد طي

[٤] نسيج صوفي ناعم

الأمواج المتكسره، وربما رفرفت فوقها راية ما.. أشبه بمستوطنات يعود عهدها إلى عدة قرون، في حين لا تزال تتجاوز حجم راس دبوس بالقياس إلى خلفيتها المكونة من ذلك الامتداد المترامي الأطراف.

رسى المركب هناك، فتوقفنا وهبط جنود على اليابسة، ثم تابعنا السير لنترل إلى اليابسة فيما بقي الموظفون الكتبة العاملون في الجمارك لفرض ضريبة المرور، ولقد سمعت فيما بعد بأن بعضهم قد مات غرقاً، ولكن فيما لو ماتوا غرقاً أم لا، فإن هذا الأمر لم يعد يعني أحداً، وكل ما في الأمر أهم قفزوا إلى اليابسة وانطرحوا أرضاً.

بدا لنا الساحل كل يوم على حاله، لم يتغير فيه شيء كما أننا لم نتحرك، لكنا كنا ننتقل إلى أماكن مختلفة عديدة ، أماكن تجارية تُعرف بأسماء معينة مثل (Little Popo) و (Gran Bassam)والتي يبدو أها أسماء ذات علاقة بمهزلة دنيئة تم تنفيذها إزاء خلفية الرداء المشؤومة، ومما لفت النظر، فإن كل المسافرين وتلك العزلة الموحشة بين جميع هؤلاء الرجال لا تربطني هم أية رابطة،وذلك البحر فاتر الهمة، ولون الشاطئ المعتم،لقد بدا لي بأن هذه الأوضاع كلها تحرص على إبعادي عن إدراك حقيقة الأشياء ضمن شبكة وهم محزن أجوف لا معنى له.

بات صوت الأمواج المتكسرة بين حين وآخر مصدراً لمتعة إيجابية كحديث أخوي، ليبدو شيئاً طبيعياً له مبرراته ومغزاه،وقد يوحي أحياناً مركب قادم من الشاطئ باحتكاك مؤقت مع الوقت فيجذبه رجال زنوج، ويمكن من مسافة بعيدة، رؤية مقل العيون تلمع، فرحين ويغنون وبدت أجسادهم مبتلة تتصبب عرقاً بوجوه تشبه الأقنعة الغريبة المثابرة ولكنهم يتسمون بالعضلات القوية والحيوية المتوحشة وطاقة مركبة مذهلة، ولا غرابة في ذلك فهو أمر طبيعي وواقعي تماماً كالأمواج المتكسرة على الشواطئ الممتدة على طول ساحلهم، وما من داعٍ لتبرير وجودهم هناك في هذا الوقت بالذات، فالنظر إليهم يدعو إلى الارتياح وقد انتابني حينئذ شعور بأنني ما زلت أنتمي إلى عالم ينطوي على وقائع سهلة ساذجة،ولكنّ هذا الشعور لم يدم طويلاً،فهناك شيء ما لابد أن يبعدك عنه، من

شدة الخوف والرعب.

ما زلت أذكر أننا قصدنا ذات مرة سفينة حربية،وقد ألقت مرساها بعيداً جداً عن الساحل لأنه لم يكن ولو حظيرة واحدة هناك، ومع ذلك كانت تطلق قذائفها على الدغل المقابلة لها، وقد صادف مرور إحدى سفن الفرنسيين الحربية من ذلك المكان، فسقطت الراية تترنح أرضاً كخرقة بالية،ثم لتبرز فجأة فوهات مدافع عيار ٦ أنش على طول بدن السفينة المنخفضة،بينما تقوم الأمواج الطويلة الملوّثة بالشحم بأرجحتها ومراقصتها صعوداً ونزولاً لتجعل صواريخها الضيقة تتراقص يساراً ويميناً. كانت السفينة الحربية تطلق النار على القارة بأكملها وهي منتصبة على امتداد الأرض الخاوية، تطلق في كل مكان، في السماء وفي المياه، لتبدو لغزاً غامضاً، وما كان من مسوّغ لسلوكها هذا، وانطلقت النيران كشعلة مضيئة من إحدى مدافع عيار ٦ أنش لتمضي فجأة ثم تتلاشى وتصبح أثراً بعد عين، حتى القليل من الدخان الأبيض توارى عن الأنظار، ثم تبعتها قذيفة صغيرة أخرى لتنطلق كصرخة ذعر ضعيفة منهوكة. ومع كل ما حدث، لم يحدث شيء يذكر ولن يحدث أي شيء آخر، حيث تنطوي هذه العملية الحربية، بالواقع على مس من الجنون والحماقة القصوى، وهي تنطوي على مشهد هزلي كئيب، وكدليل على ذلك قال لي أحد البحارة بنبرة يعلوها الجدّ: يوجد مخيم للسكان الأصليين، الذين سمّاهم أعداءً، إنهم مختبؤن في مكان ما هناك.

قمنا بتسليمها رسائلها(وقد سمعتُ بأن الرجال في تلك السفينة المنفردة كانوا يموتون بسبب إصابتهم بالحمّى بمعدل ثلاثة أيام) تابعنا سيرنا وقصدنا أماكن أخرى تحمل أسماءً سخيفة حيث تنطلق رقعة الموت المرحة، وليستمر العمل التجاري في جو ترابي هادئ كأنه يخيّم فوق سرادب الموتى على طول ساحل لا شكل له ولاصورة، محاط بأمواج متكسرة وهائجة، كما لو أن الطبيعة نفسها أرادت أن تدفع عنها أذى الغزاة المتطفلين داخل الأنهار وخارجها، أنهار الموت في الحياة لا سيما وأن المنحدرات قد تعفنت وتحوّلت إلى أوحال حيث تكثفت المياه وتحولت إلى مادة لزجة اكتسحت أشجار المنغروف

الاستوائية التي بدت تتلوى علينا حيث إستبد بها يأس مفرط.

لم أحصل على أي انطباع مميز في أي مكان قصدناه، ولكني حصلت على إحساس عام من الدهشة الغامضة المستبدة، وقد نما مثل هذا الإحساس في داخلي وسيطر عليّ وكان أشبه برحلة طويلة مرهقة ومملة بين تلميحات خاصة بالكوابيس.

مضى أكثر من ثلاثين يوماً دون أن أرى مصب النهر الكبير، فألقينا المرساة بعيداً عن مقر الحكومة، ولكن لن يبدأ عملي إلاّ بعد مسافة بعيدة تناهز المئتي ميلاً، فحاولت قدر المستطاع وبأسرع وقت ممكن أن أجتاز ثلاثين ميلاً كي أصل إلى المكان المنشود.

لقد قطعت المسافة على متن مركب بحري صغير، وكان القبطان سويدياً، وما إن عرف بأني بحّار حتى دعاني إلى منصة الربّان، إنه شاب صغير، نحيل الجسم، بهي الطلعة، نكد المزاج، كئيب، ذو شعر مسترسل طويل، متثاقل المشي، وما كدنا نبتعد عن رصيف المرفأ ذي المظهر المتواضع البسيط حتى هزّ رأسه مشيراً باحتقار إلى الشاطئ فسألني:

ـــ أكنت تعيش هناك؟

فأجبته: نعم.

تابع حديثه بلغة إنكليزية دقيقة ومتقنة وبلهجة تنم عن المرارة والأسى:

إن رجال الحكومة هؤلاء مدهشون، أليس كذلك؟ إنه لمضحك! فكيف يستطيع بعض الناس أن يعملوا براتب شهري لا يتجاوز بعض الفرنكات في الشهر، فأتساءل أحياناً:

ـــ ماذا سيكون وضع هؤلاء الأشخاص إذا أفلس البلد؟

فقلت: إني أتوقع أن يحدث ذلك قريباً.

فصاح مندهشاً: هـــ ...ك... ذا... إذا!

قال ذلك، ومشى متثاقلاً بانحراف من جانب لآخر، ناظراً بعين واحدة، ثم تابع كلامه:

ـــ لا تكن واثقاً جداً.

قال ذلك وتوقف قليلاً ليستطرد:

ــ لقد حملتُ البارحة رجلاً كان قد شنق نفسه على الطريق، كان سويدياً.

فصرخت: شنق نفسه؟ لماذا بحق الرب؟

أخذ يراقب البحر بحذر ثم قال:

ــ من يعرف؟ ربما كانت الشمس لا تُطاق بالنسبة له، وربما البلد.

وصلنا فيما بعد إلى لسان منبسط حيث ظهر أمامنا منحدر صخري جارف بهضاب صغيرة من التراب المكدّس إلى الأعلى سببه الشاطئ، وبيوت على التل وأخرى مزودة بسطوح حديدية قائمة على ارض بور مليئة الحفر، وقد شاهدنا حشداً من الناس، زنوجاً عراة، يتحركون هنا وهناك كالنمل، وقد وقع بصرنا على حاجز مائي داخل النهر، وحين كانت الشمس ساطعة جداً قال السويدي وهو يشير إلى ثلاث ثكنات مصنوعة من الخشب مشيدة على منحدر صخري :

ــ هناك مقر شركتك، سوف أنقل أشياءك إلى هناك، أربعة صناديق ــ أليس كذلك؟ وداعاً الآن.

أبصرت بالصدفة قدر الطهي يتمرغ في العشب، ثم وجدت ممراً يؤدي إلى التل، مائلاً إلى الجانب الآخر عبر الصخور الضخمة بسبب عربة نقل خاصة بسكة الحديد، بدت اصغر من الحجم المعتاد، وكانت منطرحة على ظهرها لتبدو دواليبها مرفوعة عالياً، وإذا ما تأملها المرء من بعيد بدت أشبه بهيكل عظمي لحيوان ميت.

نظرت فزعاً ــ حين بدا الممر شديد الانحدار، حين ترامى إلى سمعي صوت بوق منبعث من الجهة اليمنى، فشاهدت الناس السود يركضون، أثناء ذلك، انبعث صوت انفجار شديد، هزّ الأرض وتصاعدت سحابة دخانية من جهة الجرف وانتهى الأمر إلى هذا الحد، و لم يُلاحظ أي تغيير على وجه الصخرة، فعلى ما يبدو أنهم يشيدون سكة حديد، ولكن لم يكن الجرف أو أي شيء آخر قائماً عند الطريق وإنما جرى بالفعل من ذلك الانفجار، إنه انفجار بحد ذاته دون أي هدف آخر.

إن ثمة خشخشة خفيفة، انبعثت من وراء ظهري، جعلتني أستدير لأشاهد ستة زنوج يتقدمون بنسق واحد، يجتازون الممر بصعوبة بالغة، وقد كانوا يمشون منتصبي القائمة وببطء، حيث يضعون سلالاً صغيرة مليئة بالتراب على رؤوسهم، في حين تتزامن الخشخشة ووقع أقدامهم، وقد تدلّت خرق سوداء فوق عوراهم بينما تترنح عند مؤخرهم أطراف قصيرة أشبه بذيول حيوانات حيث أستطيع أن أرى كل ضلع، وقد بدت مفاصل أوصالهم أشبه بعقد حبل، ولقد كان عنق كل واحد منهم مطوّقاً بطوق حديدي، وكانوا جميعاً موثوقين بسلسلة تترنح عقدها وتتمايل بين هؤلاء الزنوج وبالتناغم مع إيقاع الخشخشة.

لقد خطرت ببالي ــ عند سماع دوي الانفجار الثاني ــ تلك البارجة التي شاهدتها تطلق القنابل لتقصف القارة، ولعله الصوت نفسه المنذر بالشؤم.

ولكن لا يمكن أن نعد هؤلاء الرجال أعداءً بأي حالٍ من الأحوال، مع انهم كانوا يُعدون مجرمين في نظر قانون المعتدي، كقنبلة المدفع التي استبدت بهم على وتيرة لغز غامض قادم من البحر لا تفسير له ولا تأويل، فصدورهم النحيلة الضعيفة تلهث سوية، وأنوفهم المتسعة والمشوهة تهتز وترتعش بعيون تحدّق عالياً نحو التل، بنظرة متحجرة فاقدة القدرة على التعبير.

مروا من جانبي عن بعد لا يتجاوز ستة إنشات دون أن يلقوا عليّ ولو نظرة خاطفة، مروا بقربي غير مبالين، تماماً كمبالاة ميت منبعثة للمتوحشين الأشقياء.

أبصرت زنجياً وراء هذه المجموعة غير المدربة، كنتاج للقوى العالمية الجديدة، كان يمشي على مهل يحمل البندقية من وسطها، يرتدي بدلة نظامية ينقصها زر، وعندما يلمح رجلاً أبيضاً يجتاز الممر، يرفع سلاحه حتى كتفه بخفة ونشاط، إنه يقوم بذلك من باب الحيطة، ليس إلاّ، أولئك الرجال البيض يتشابهون كثيراً من مسافة بعيدة، فيصعب عليه معرفة هوية الشخص القادم إليه، وما إن اطمأن إليّ(بسرعة ملحوظة) حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة شاحبة، ثم ألقى نظرة خاطفة على سلاحه، يعني أنه ضمَّني لشركته

نتيجة ثقة طارئة، وبعد كل ذلك فإنني أشكل أيضاً جزءاً من هذه القضية الكبرى لهذه الصفقات.

استدرت واتجهت نزولاً نحو الشمال بدلاً من التوجه صعوداً، إذ فكرت بإبعاد هذه العقبة المقيدة عن مرمى بصري قبل صعودي إلى التل، فكما تعلمون إنني لست عاطفياً تماماً ليترتب عليّ أن أقاتل وأصون نفسي من الأخطار، بل وعليّ أن أهاجم في أحيان أخرى.

تلك هي الطريقة الوحيدة للمقامة دون النظر إلى عواقب الأمور، بناء لمتطلبات هذا النوع من الحياة التي انزلقت عليه خطأ، لقد شاهدت شيطان العنف وشيطان الطمع وشيطان الرغبة الجنسية الجامحة، ولكني أقسم بنجوم السماء:

ـ إنهم شياطين أقوياء، شهوانيون، حادو النظرات، تقدح عونهم شرراً، لتسيطر على البشر وتدفعهم مرغمين وبعنف نحو أهداف مشبوهة.

نعم إنهم يدفعون بالبشر... البشر، صدِّقوني! ولكن وعندما انتصبت واقفاً على الهضبة، تنبأت من خلال شعاع الشمس المبهر للنظر، المبهر لتلك اليابسة بأنني سأتعرّف على شيطان مترهل مدّع، ضعيف البصر، أحمق، لا يعرف معنىً للشفقة أو الرحمة، ويكون أيضاً ماكراً بشكل مذهل. لم اكتشف ذلك إلاّ بعد مرور عدة أشهر وبعد اجتياز آلاف الميال،وقفت جامداً لعدة ثوان وقد استبد بي الرعب، فأحسست بإنذار ما يراودني في هذه اللحظة بالذات، فنزلت أخيراً من الهضبة بشكل متجهٍ صوب الأشجار التي كنت قد رأيتها من قبل.

تحاشيت حفرة اصطناعية كبيرة، حيث كان شخص ما يحفر عند المنحدر، وقد بدا لي عمله مربكاً يستحيل اكتشاف غرضه، فإن لم يكن مقلع حجارة أو مقلع رمل، لم يكن على أية حال سوى حفرة، قد يكون الأمر متعلقاً بالرغبة في تامين عمل ما يمارسه المجرمون، ولا اعرف.

سقطت بعد ذلك ومن حيث لا ادري في وهدٍ ضيق جداً، لا يتجاوز صخرة خفيفة

عند منحدر التل، وقد إتضح لي بأن كمية من أنابيب التصريف التي تخص الشركة قد طُرحت هناك أرضاً بسرعة وفوضى، وما من أنبوب باقٍ غير محطم، وإنه لانهيار عابث لا مبرر له، توقفت أخيراً تحت أغصان الشجر لفترة وجيزة ولكن وبعد ثوانٍ انتابني إحساس بأني قمت بخطوة إلى قلب دائرة مظلمة عابسة، إلى دائرة الجحيم، لقد كانت منحدرات النهر قريبة مني.

دوت ــ فجأة ــ جلَبَة متصلة صاخبة طائشة، وقد ملأت تلك السكينة المأتمية الأيكة، حيث لا هدوء ولا حركة لأية ورقة، وثمة صوت غامض مبهم يسودها، صوت أشبه بدوي قذيفة قد انطلقت فجأة من منصة صواريخ باتت مسموعة.

أشكال سوداء تنحني وتربض وتنطرح أرضاً لتجد لها مكاناً بين الأشجار المستندة إلى الجذور، وقد التصقت بالتراب، فقد خرج نصفها من هناك في حين خرج النصف الآخر ليتسلل وراء الضوء المعتم ليجسد خير تجسيد الألم والمعاناة والتشرد واليأس، ودوي آخر انبعث من جهة الجرف جعلني أحس برعدة ضعيفة تسري في الأرض تحت قدمي، لقد كان العمل في أوج نشاطه.

العمل! وفي هذا المكان بالذات لجأ إليه أحد العمال ولفظ أنفاسه الأخيرة. لقد كانوا يموتون ببطء وعلى مهل، وذلك أمر واضح كل الوضوح، فهم ليسوا أعداءً وليسوا مجرمين، ولا ينتمون بعد الآن إلى أبناء الأرض، وما هم إلا أشباح سوداء تجسد المرض والجوع، فينطرحون في مكان مظلم ضارب إلى العفن، وقد جيء بهم من جميع الجهات المنعزلة عن الساحل وفقاً لعقود اتفاق قانونية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فتاهوا في أماكن غير ملائمة لطبيعتهم وحاجياتهم، ليتناولوا طعاماً غير مألوف ممّا سبّب لهم المرض، فغدوا غير صالحين للعمل، حينئذ سُمح لهم بأن يزحفوا بعيداً طلباً للرحمة.

إن هذه الأجساد المريضة حرة كالهواء ضعيفة، فبدأت أميّز ومضة العيون تحت أغصان الشجر، وألقيت بعد ذلك نظرة سريعة على الأرض، فأبصرت وجهاً قريباً من يدي حيث بدت عظامه السوداء منحنية على مداها إلى الوراء، وقد أسند كتفاً إلى

الشجرة.

تفتحت جفونه وعيناه الغائرتان ببطء،ونظرتا إليّ وقد بدتا فارغتين مفكرتين، ليس رجلاً بل شبيهاً بالرجل الأعمى، ويمكن أن تبص بصيصاً أبيضاً كامناً في أعماق كل مدار عين، ليتلاشى هذا البصيص ويموت على مهل، وقد بدا لي الرجل شاباً في مطلع العمر وعلى أنه فتى، ولكن وكما تعلمون يصعب على المرء تحديد أعمار مثل هؤلاء البؤساء، و لم يكن بوسعي أن أفعل سوى تقديم قطعة من علبة بسكويت وجدتها في جيبي، أطبقت عليها أصابعه ببطء وثبتتها في يده. ما من حركة بعد ذلك أو نظرة خاطفة، فقد كان يربط حول عنقه قطعة بيضاء من نسيج صوفي، ولكن لماذا؟ وكيف حصل عليها؟ أهي علامة مميزة؟ أحيلة تلك؟ تعويذة أم شيء استرضائي؟ أثمة فكرة ما عن علاقة بهذا النسيج الأبيض؟(إنها تبدو مرعبة ومثيرة للفزع، تلك القطعة الصغيرة من النسيج الأبيض القادمة من وراء البحار!)

كان يستقر قرب نفس الشجرة حزمتان إضافيتان، حادتا الزوايا، وقد بدت السيقان مرفوعة إلى أعلى:

أما الحزمة الأولى فتنطوي على ذقن وخد وتتكئ على ركبتين، وبدا الرجل يحمّلق في اللاشيء، وبطريقة يغلب عليها عدم الاحتمال والرعب، في حين كان أخوه الشبح قد أسند جبينه إلى ركبتيه دليلاً على الشعور بالإرهاق الشديد، وثمة رجال آخرون منتشرون هنا وهناك،وقد اتخذ كل واحد وضعية معينة إذ بدا الجسد منهاراً، يئن ويتلوى من شدة الألم تماماً كما تشاهد ذلك في لوحة فنية تمثل مجزرة بشرية جماعية أو تمثل انتشار الطاعون.

لقد دب الرعب في أوصالي، بينما كنت واقفاً مذهولاً، فقد نهض واحد من هذه المخلوقات متكئاً على يديه وقدميه، واتجه على أطرافه الأربعة نحو النهر ليشرب، فبدأ يلعق الماء بيده ثم جلس قبالة الشمس عاقداً ساقيه أمامه، وبعد وقت قصير ترك رأسه الصوفي يتراخى ليتدلى على عظم صدره.

لم اعد أحتمل التتره في مكان ظليل كهذا، فحملت حالي مهرولاً متجهاً نحو المحطة، فالتقيت – قرب البنايات– رجلاً أبيضاً أذهلني مظهره الأنيق، فهو حسن الهندام إلى درجة اعتقدت معها للوهلة الأولى أنه ضرب من الرؤيا، فاندفعت أتأمل ياقته العالية، لأبصر طرفي الكُميْن باللون الأبيض، وسترة مصنوعة من (الألبكا)(٥)وبنطال ثلجي، وربطة عنق فاتحة اللون، ناهيك عن جزمة أنيقة، ولكنه لا يرتدي قبعة، مسترسل الشعر، مفروق منقوع بالزيت تعلوه مظلة نسائية خضراء اللون، تحملها يد بيضاء كبيرة الحجم، لقد كان مدهشاً لاسيما عندما كان يضع مسكة الريشة وراء أذنه.

تصافحت مع هذه الأعجوبة وعلمت أنه رئيس محاسبة الشركة وهو المسؤول عن مسك الدفاتر في المحطة، غادر لفترة وجيزة وهو يقول: جئت إلى هناك لأستنشق النسيم العليل.

بدت هذه العبارة غريبة فعلاً، فهي توحي بأنه يعيش جالساً وراء طاولة المكتب طوال حياته.

كم أتمنى لو أنني لم أذكر لكم ذلك الرجل لولا أن اسمه على غاية من الأهمية بمذكرات ذلك الزمن، علاوة على أنني أحترمه، نعم، إني أحترم ياقته: طرفي كميه العريضين وشعره الممشط، فمظهره يوحي بتمثال الحلاّق لعرض الباروكة ولكنه وعلى الرغم من انتشار الفوضى والارتباك الذهني بقي يحتفظ بمظهره اللائق ليدل على قوة العزيمة وقوة في الشخصية، حتى أن لياقته دليل على طبع جدير بالاحترام، فقد أقام في الخارج ثلاث سنوات، وبعد أن مضى وقت قصير سألته: كيف استطعت أن تقتني هذه الملابس الكتانية؟

إحمّر وجهه خجلاً وأجاب بتواضع:

ـــ كنت أدرب إحدى نساء هذه المنطقة فيما يتعلق بالمحطة، فقد كان الأمر صعباً لأنها كانت تمتهن العمل. وهكذا أنجز هذا الرجل عملاً ما، فقد كان ينذر نفسه لكتبه التي

(٥) الألبكا: حيوان ثديي أمريكي شبيه بالخروف، طويل الصوف ناعمه.

كانت منسقة أفضل تنسيق، وبدا كل شيء آخر في المحطة مشوشاً:

الأشياء والبنايات وقوافل الزنوج المغبرين بأرجلهم المفلطحة، يحطون ويرحلون... باخرة مكتظة بالبضائع المصنفة، نفايات القطن وخرزات المسابح والأسلاك النحاسية، تنقل كل هذه البضائع خفية تحت جنح الظلام، يُدفع ثمنها بقطع العاج النادرة الثمينة.

كان عليّ أن أبقى في المحطة عشرة أيام بدت لي وكأنها دهر بكامله، فمكثت في كوخ مشاد في الباحة كي أبتعد عن الفوضى وكنت أتردد أحيانا على حجرة المحاسبة التي تم تشييدها أفقياً بألواح خشبية ثقيلة وثخينة وقد صُفت جنباً إلى جنب بشكل غير منسق، وإذا ما انحنى المرء فوق طاولته العالية وجد نفسه معرضا لقطع طويلة ضيقة من شعاع الشمس، ابتداءً من الرقبة وحتى العقبين، ولم يكن بحاجة إلى فتح مصراعي النافذة الكبيرة ليرى بوضوح، في حين أن الحر لا يطاق في داخلها، علاوة على مجموعة ذباب من الحجم الكبير، تطن بشكل شيطاني مقيت جداً، ومع أنها لا تلدغ إلا أنها تطن.

كنت أجلس على أرضية الغرفة، بينما كان يجلس جاثماً على مقعده المرتفع (بلا مسند أو ذراعين) وكان يكتب، وكان يقف أحياناً للقيام ببعض التدريبات الجسدية، وكان لا يتردد في إبداء انزعاجه الشخصي بطريقة لطيفة عندما كان يوضع في سرير منخفض مع رجل مريض هنا وفي هذا المكان بالذات، (عادة ما يكون المريض ممثلاً للشركة من داخل البلاد بعيداً عن الساحل) فكان يقول حينذاك:

ـــ إن تأوهات هذا الشخص المريض تجعلني عاجزاً عن التفكير، وبدونه يصعب على المرء وقاية نفسه من أخطاء الكاتب لا سيما في مناخ كهذا.

ذات يوم ساق الملاحظة التالية دون أن يرفع رأسه:

ـــ مما لاشك فيه أنك ستقابل السيد كورتز في الداخل. فسارعت لأسأله: مَنْ هو السيد كورتز؟

فقال: إنه مندوب من الدرجة الأولى.

قال ذلك وقد لاحظ خيبة الأمل المرتسمة على وجهي، فأردف ببطء بعد أن طرح

قلمه جانباً:

ـــ إنه شخصية بارزة جداً.

تبيّن لي بعد أن طرحت عليه عدة أسئلة بأن السيد كورتز يتولى إدارة مركز تجاري مرموق حالياً، مركز على جانب من الأهمية في بلد العاج بل وفي جوفه، ولديه المقدرة على إرسال العاج بكمية وافية تضاهي كل ما يقدمه الآخرون مجتمعين، قال ذلك وانطلق يكتب من جديد، أمّا الرجل المريض لم يعد قادراً على التأوه مرة أخرى، فالذباب يطن عليه بسكينة تامة.

تعالت وبلا سابق إنذار دمدمة أصوات ووقع أقدام ثقيلة متزايدة لتعلن وصول قافلة، فانفجرت ثرثرة عنيفة تعود لأصوات غريبة غير مألوفة على محاذاة الجانب الآخر من الألواح الخشبية حيث كان الحمَّالون يتكلمون جميعاً دفعة واحدة، وإبّان هذا الصراخ تعالى صوت رئيس الموظفين صارخاً: كفى!

كرر صراخه نحو عشرين مرة بتذمر وألم في ذلك اليوم، ثم نهض متثاقلاً ليقول: يا له من زعيق مرعب!

اجتاز الغرفة ببطء ليلقي نظرة على الرجل المريض ثم عاد إلى مكانه ليوجه حديثه إليّ:

ـــ إنه لا يسمع.

فسألته مندهشاً : ماذا؟ هل مات؟

أجاب بهدوء منفعل: لا، لم يمت بعد.

قال ذلك وأومأ برأسه إلى مصدر الفوضى والزعيق في فناء المحطة ثم أردف:

ـــ إن حدث وكره المرء هؤلاء المتوحشين فسيكرههم حتى الموت. توقف قليلاً وكأنه يتأمل شيئاً ما ثم استطرد:

ـــ عندما تلتقي السيد كورتز أخبره نيابة عني بأن كل شيء على خير ما يرام.

قال ذلك وقام بإلقاء نظرة خاطفة على مكتبه، لا احب أن اكتب له، إذ يصعب

عليك التأكد من إخلاص هؤلاء الرسل في هذا المجال أو الاتصال به في تلك المحطة المركزية، توقف ليحدّق في وجهي لبرهة قصيرة بعينين جاحظتين تجسدان اللطف والدعة ثم أضاف:

ــ آه، إنه يرحل بعيداً، بعيداً جداً، سيغدو شخصية مرموقة في الحكومة في القريب العاجل، إنهم يريدونه، أعني أعضاء المجلس الأوروبي.

عاد ليتابع عمله مع توقف الضجيج في الخارج، أمّا أنا فتوقفت عند عتبة الباب، وعبر طنين الذباب المستمر كان المندوب المريض المحتوم عليه التوجه نحو وطنه منطرحاً ككتلة واحدة بلا إحساس، أما الآخر فقد انكبّ على كتبه ليدوّن بصدق معاملات تجارية صحيحة تماماً، مع أنني أستطيع أن أرى ذرى الشجر الهادئة، ذرى غابة الموت على مسافة خمسين قدماً عند أسفل العتبة.

تركت المحطة في اليوم التالي لأرافق قافلة مؤلفة من ستين رجلاً، للقيام برحلة تبلغ مئتي ميلاً سيراً على الأقدام وإن إطالة الحديث عن هذه الرحلة أعده أمراً بلا جدوى، فالممرات منتشرة في كل مكان، بل شبكة من الممرات تنتشر فوق الأرض الجدباء، عبر مساحات بأعشاب طويلة، عبر أعشاب محروقة وحتى عبر الأدغال نزولاً تحت التلال الصخرية المتوهجة بتأثير الحرارة العالية، علاوة على العزلة التي تسيطر على المكان، العزلة بمفردها مجردة من البشر، فما من أحد من الناس أو حتى كوخ واحد.

لقد نزح السكان من هنا منذ زمن طويل، ولكن لا بأس، فمن الجائز أن يأتي عدد كبير من الزنوج المجهولين المسلحين بكل أنواع الأسلحة المخيفة، ومن الجائز أن يعبروا فجأة الطريق القائم بين Deal ،Gravesend ويشرعون في القبض على الفلاحين يساراً ويميناً وذلك لينقلوا لهم الأحمال الثقيلة.

لقد تخيّلت بأن كل مزرعة وكل كوخ في هذه النواحي سيصبح مقفراً في القريب العاجل، حتى المساكن نفسها أصبحت خالية من ذويها.

تابعت السير مجتازاً عدة قرى مهجورة، إلا أن ثمة شيئاً ما ذا مظهر طفولي، ذا علاقة

بأطلال الجدران العشبية قد برز أمامي، وهكذا تابعت السير العشوائي يوماً بعد يوم بينما كانت تتبعني مجموعة مؤلفة من ستين زوجاً من الأقدام العارية، وكنت أتحمل كلفة كل زوج بمبلغ معين لنقل غرض ما، بما في ذلك التخييم والطبخ أو النوم ونصب الخيام بل وحتى السير إلى الأمام.

بين حين لآخر، كان حمّال يفارق الحياة أثناء قيامه بعمله الاعتيادي، كان يفارق الحياة بعد أن يطلب الاستراحة على العشب الطويل قرب النهر وبجواره مطرة فارغة وعصاه الطويلة ملقاة بجانبه، وثمة صمت مطبق يسود المكان يسيطر على جميع أحشائه، وكانت تتعالى في بعض الليالي الهادئة رعشة الطبول البعيدة: تغور وتزداد بقوة، ثم يتسع مداها لتخبو من جديد، فيعلو صوت غريب ينادي مستعطفاً موحياً بشكل وحشي وقد يبدو يحمل مغزىً عميقاً أشبه بصوت الأجراس في بلد مسيحي.

خيّم ذات مرة، رجل ابيض يرتدي بزة عسكرية بدون أزرار، خيّم على الممر رجل مسلح من ZanZibaris ويبدو أ نه مضياف يحب الاحتفالات ولا يبدو أنه سكّير، فقال: إنني أعتني بصيانة الطريق ولا أستطيع أن أقول إنني شاهدت أية طريق أو أية صيانة فيما عدا جثة زنجي في منتصف العمر وعلى جبهته ثقب رصاصة، لقد عثرت عليه من على بعد ثلاثة أميال ولربما يمكن أن أعده إمداداً أبدياً.

كذلك أنا كان لديّ رفيق أبيض لم يكن شاباً سيئاً، وكان من عادته السيئة أن يُغمى عليه كلما صعد إلى التلال الحارة، إذا ما بعد عدة أميال عن الظل والماء. وإنه لأمر مزعج أن تضع معطفك فوق رأس الرجل مثل المظلة ما إن يأتي إلى هذا المكان، فأجاب بنبرة ساخرة: للحصول على المال بالتأكيد، وهل يخطر ببالك شيء آخر؟

أصيب بعد ذلك بالحمّى فنقل على حمّالة معلقة بسارية، ولكونه يزن ستة عشر طناً، كان لابد من الاستعانة بعنف غير محدد من الحمّالين الزنوج، ولكنهم رفضوا القيام بالعمل فولّوا هاربين لينسلوا مع حمولاتهم وجنح الظلام، إذ حصل عصيان بكل معنى الكلمة.

أجريت ذات مساء حديثاً بالإنكليزية مع بعض الإيماءات وما من واحدة قد ضلت طريقها لتصل أياً من الأزواج الستين من العيون التي أمامي، وفي صباح اليوم التالي، بدأت بالأرجوحة الشبكية لأصنعها بشكل جيد، وخلال ساعة بعد ذلك عثرت على أشياء تحولت إلى حطام داخل الغابة، فوجدت رجلاً معلقاً، تأوهات، شراشف ورعباً وفظائع، فقد كان البولندي السمين قد سلخ جلد أنفه، وكان قلقاً جداً من اجلي كي لا أقتل أحداً ولكني لم أعثر على ظل حمّال قريب من هنا،فتركت حينئذ الدكتور العجوز وقلت:

ـــ قد يكون الأمر مثيراً بالنسبة للعلم بمراقبة التغييرات العقلية للأفراد في مكان الحدث.

شعرت بأنني غدوت أهتم بالأمور العملية، ومهما يكن من أمر فإن ذلك لا يخدم أي غرض معين.

وقع بعد خمسة عشر يوماً على النهر الكبير ثانية، وقد تعرّج قليلاً داخل المحطة المركزية، وقد كان يجري على مياه راكدة، وكان محاطاً بشجيرات ملتفة الأغصان والغابة أيضاً، بالإضافة إلى حافة جميلة من الطين ذي الرائحة الخاصة، وكان يحيطه من الجهات الثلاثة الأخرى سياج مجنون من نبات السّماد، ومنذ الوهلة الأولى، تدرك بأن الشيطان المترهل هو من يدير، وظهر بعد ذلك رجال بيض بأيديهم هراوات طويلة، ظهروا من العمارات ببطء واقتربوا مني ليرمقوني بنظرة فاحصة، ثم استداروا لينسحبوا ويتواروا عن الأنظار في مكان ما. وقد كان أحدهم عصبي المزاج بشاربين سوداويين، فقد أخبرني بلسان طليق مستنداً إلى عدة استطرادات كلامية بعد أن عرّفته على شخصين وأن قاربي قابع في قاع النهر. ولقد أُصبت بالذهول الصاعق:

- ماذا. كيف؟ لماذا؟ آه كل شيء يسير على ما يرام، فالمدير نفسه كان حاضراً هناك، لقد تصرفت بشكل رائع!

فقال منفعلاً: عليك أن تذهب وتقابل المدير العام فوراً، إنه بانتظارك.

لم أكن أدرك المغزى الحقيقي المتعلق بحطام المركب الغارق منذ الوهلة الأولى، ولكنني

أعتقد بأنني سأطلّع عليه الآن، مع أنني لست واثقاً من ذلك على الإطلاق، ومما لاشك فيه فإن الأمر يغدو في غاية السخافة.

ما لم تخطر ببالي هذه الفكرة إذا ما كان كل شيء طبيعياً وكان الأمر بدا مزعجاً مقيتاً: فالمركب قد غرق، وانطلقوا جميعاً منذ يوم، بسرعة جنونية وطائشة، ليجتازوا النهر برفقة المدير الموجود على متنه. حيث كان يقوده قبطان متطوع، وما إن مضت ثلاث ساعات حتى أصيب جوف المركب وتمزق شر تمزيق على الصخور فجنح وغرق قرب المنحدر النهري في الجهة الجنوبية، فتساءلت: ماذا يمكن أن افعل هناك ومركبي مفقود والحقيقة التي لا مراء فيها يترتب عليّ الكثير لأقوم به، فقبل كل شيء عليّ أن انتشل البحارة الذين تحت إمرتي من النهر، وعليّ أن ابدأ في اليوم التالي بالإصلاحات الضرورية عندما أقوم بنقل البضائع إلى المحطة، ولكن ذلك سيستغرق عدة شهور.

كان لقائي الأول مع مدير الشركة مثيراً للدهشة، فلم يدعني للجلوس بعد قطع عشرين ميلاً سيراً على الأقدام هذا الصباح، لقد كان رجلاً عادي المظهر سواءً من حيث لون البشرة أو معالم الوجه أو في حركاته أو النبرة التي تلوّن صوته وهو معتدل القامة عادي البنية بعينين زرقاوين يتمتع بنظرات باردة، ولكن بوسعه أن يوجه نظرة حادة جداً وقاسية تماماً كالفأس، في حين تخلت بقية ملامح شخصيته عن هذه الحالة، و لا تنطوي شفتاه إلا على تعبير ضعيف غير واضح لتنمّا عن شيء ما، أما ابتسامته فلم تكن مألوفة، ما زلت أذكرها ولكني لا أستطيع أن أجد تفسيراً لذلك، وهي ابتسامة فجة ترتفع وتيرتها لثوانٍ معدودة إثر تفوهه ببعض الكلمات، وتبدو في نهاية حديثه أشبه بختم وضع على الكلمات يجعل من العبارة العامية أكثر وضوحاً، لقد كان تاجراً عادياً، وقد بدأ بمزاولة هذه المهنة منذ شبابه، ولا شيء آخر، إنه رجل مطاع مع أنه لا يوحي لا بالحب ولا بالخوف ولا حتى بالاحترام، إنه تأثير هذه المقدرة وهو ليس مميزاً في مجال التدبير والتنظيم، أو اتخاذ المبادرة أو حتى بإصدار الأوامر، ولا عجب إن بدا المركز في حالة يُرثى لها، فهو لا يملك أصولاً للمعرفة ولا يتمتع بالذكاء، ولقد آل إليه المنصب، ولكن لماذا؟ ربما لأنه لم

يكن مريضاً أبداً، فقد خدم هنا لثلاث سنوات، فالصحة الغالبة تشكل بحد ذاتها القوة الفاعلة المرتجاة، وإذا ما رحل إلى وطنه الأم فإنه يُحدث شغباً لا مثيل له، وذلك على سبيل الزهو والأبهة .

ـــ جاك على الشاطئ ـــ مع اختلاف في المظهر الخارجي فقط، إن هذا الشخص يستطيع أن يحقق ما يشاء بحديثه العرضي فقط، وهو لا يستطيع أن يبتكر شيئاً جيداً ولا يستطيع أن يحافظ على الروتين المألوف، هذا كل ما في الأمر، ولكنه كان رجلاً عظيماً يُفضِّل الشيء الصغير بحيث يبدو من المستحيل تحديد الشيء القادر على السيطرة على رجل كهذا، وهو لم يفصح عن سره إطلاقاً، مع أنه لم يملك أي سر في داخله أبداً، ولا غرور أن يساورك شك بخصوص هذا الواقع، فما من دليل خارجي ينم على مقدرة أو أية موهبة حقيقية.

انتشرت ذات يوم أمراض استوائية مختلفة، أصابت كل موظف في المركز تقريباً، فسُمع حينذاك يقول:

ـــ إن الرجال الذين يأتون من الخارج لا أمعاء لهم، قال هذا وختم حديثه بابتسامته التقليدية التي أشبه ما تكون بسبات قد فتح عن مكنوناته في الظلام، ولعلك تخيّلت أنك قد شاهدت أشياء عليها ختم، ولكن الختم كان عليها فعلاً إذا ما سبّب له أي إزعاج خلال تناوله الطعام بحكم هذه المعارك المستمرة التي يخوضها الرجال البيض بسبب الأسبقية، فإنه لا يتردد في توجيه أوامره لعقد جلسة خاصة مهمة حول الطاولة المستديرة، بحيث يتوجب تشييد شركة خاصة لتنفيذ مثل هذا المشروع،ومن هنا نشأت غرفة الطعام على مائدة واحدة، وحينما يجلس يكون في المقام الأول،وأمّا سائر الأمكنة فلا جهة لها إطلاقاً مما يجعل الآخرين يعتقدون بقناعة راسخة. ولم يكن رجلاً متحضراً أو غير متحضر، إنه رجل هادئ وقد سمح لخادمه الولد الزنجي القادم من الساحل أن يعامل الرجال البيض بوقاحة مستفزة أمامه تماماً.

اندفع يتكلم ما إن رآني مع أنني أمضيت وقتاً طويلاً على الطريق، فهو لا يستطيع

الانتظار ولن يكون بوسعه أن يبدأ العمل بدوني، ولا بد من التخلي عن المراكز القائمة عند أعلى النهر، وقد حصلت معوقات عدة أخيراً بحيث لم يعد قادراً على معرفة مَنْ مات أو من بقي على قيد الحياة، وكذلك لم يعرف أي شيء عن أحوالهم الشخصية أو ما شابهها، و لم يُعد يثير أي انتباه، فقد كان يتسلّى بقضيب شمع الختم ويردد:

ـــ الوضع خطير جداً، إنه خطير جداً. لقد انتشرت إشاعة مفادها أن مركزاً على جانب من الأهمية معرض للتلف، وأن رئيسه السيد كورتز مريض.

ـــ آمل ألا يكون ذلك صحيحاً، لقد كان السيد كورتز ......

انتابني شعور من الإجهاد والإعياء وأصبحت سريع انفعال، فقال:

ـــ إنه يُدعى هانغ كورتز.

فقاطعته: لقد سمعت عنه في الساحل.

فتمتم لنفسه: آه! إذاً تحدثوا عنه هناك.

وقف قليلاً وتابع ليقول بأن السيد كورتز كان أفضل مندوب لديه، إنه رجل استثنائي، وإنه لأكثر العاملين أهمية في هذه الشركة، وهكذا استطعت أن أفهم سبب قلقه، ثم تابع يقول: لقد كان مربكاً جداً.

أتبع ذلك حركات عديدة في مقعده، تدل على الملل والضجر، ثم أضاف متنهداً: آه، السيد كورتز! كسر قضيب الختم الشخصي وانعقد لسانه من هول الصدمة وكان الشيء الآخر الذي يريد أن يعرفه كم الوقت الذي يتطلب لإنجازه، قاطعته مرة أخرى ولكوني جائعاً ، بقيت واقفاً على قدم أيضاً، فأصبحت متوحشاً وقلت:

ـــ كيف يمكنني أن أقول و لم أشاهد حطاماً من قبل؟ وهذا بلا شك يستغرق عدة شهور.

بدا هذا الحديث تافهاً لا قيمة له، فقال:

ـــ حسن، لنقل بأننا نحتاج لثلاثة أشهر قبل أن نستطيع أن نبدأ، لا بأس قد تكون المدة كافية لإنجاز العمل.

خرجت مندفعاً من كوخه (كان يسكن لوحده في كوخ مصنوع من الطين، ذي شرفة مسقوفة)، أتمتم لنفسي:

ـــ يا له من أحمق ثائر!

ذهبت للعمل في اليوم التالي وقد أدرت ظهري لتلك المحطة، فهي الطريقة الوحيدة للاحتفاظ بحقائق الحياة، فما زال المرء يتطلّع حول نفسه أحياناً، وبعد ذلك شاهدت هذه المحطة، فهؤلاء الرجال الذين يتجولون تحت أشعة الشمس في هذه الباحة وبدون هدف، فكنت أتساءل ما معنى كل هذا؟ فهم يتسكعون هنا وهناك حاملين هراواهم الطويلة، وأصبحوا كعدد من الحجاج الذين فقدوا إيمانهم وبدوا مفتونين داخل سياج متعفن، فكلمة عاج تدوّي في الفضاء بالهمس أحياناً، وقد تعتقد بأنهم يصلون إليه، ولعل ثمة لطخة من الشره الأحمق تفوح من خلال كل هذه الأشياء كالرائحة التي تفوح من جثة متعفنة. وبحق الرب لم أشاهد في حياتي أبداً شيئاً أكثر غرابة من هذا، في حين يسود ظلام موحش في الخارج، ليبرز للعيان وقد بدت لي أشبه بشيء عظيم لا يقهر، كالشر أو الخير، منتظراً بفارغ الصبر انقضاء هذا الغزو الخيالي المتقلب الأطوار. آه يا لهذه الأشهر! لا ضير في ذلك!

لقد جرت أحداث متنوعة، فقد انفجر كوخ عشبي، مكتظ بالقماش الفضي والقماش المطبّع الألوان والخرزات وأشياء أخرى لا أعرف حقيقتها، انفجر لهباً متوهجاً بشكل مفاجئ إلى درجة يُخيّل إليك بأن الأرض قد تصدعت لتدع ناراً حمقاء تلتهم كل الزبالة، وكنت أثناء ذلك أدخن الغليون بهدوء واطمئنان جوار مركبي المفكك، وكنت أشاهدهم جميعاً على وهج النار وهم يرفعون أذرعتهم عالياً، في حين يندفع رجل جسور قوي صوب النهر حاملاً دلواً من التنك مؤكداً لي بأن كل شخص يتصرف بشكل رائع، غطس الدلو في الماء ثم انتشله ليرجع إلى الوراء، ولكني لاحظت بأن دلوه مثقوب من قعره.

بدأت باستطلاع العمل، وما من داع للعجلة، فكما ترى انفجرت الأشياء كعلبة

كبريت،إذ كانت الأمور ميؤوساً منها في البداية، فقد تصاعد اللهب ليجرف كل الناس إلى الوراء، ليبدد عتَمَةَ كل شيء ثم يتلاشى، أضحت السقيفة كومة من الحجر تتوهج بحرارة قوية، ولقد كان شخصاً زنجياً يُضرب بالقرب مني، ولقد برروا فعلتهم بأنه مَنْ سبّب الحريق بطريقة أو بأخرى، ومهما يكن من أمر فقد كان يتألم بشكل مخيف، وبعد عدة أيام رأيته يجلس في مكان ظليل، وبدا مريضاً جداً محاولاً أن يستعيد عافيته، وبعد ذلك نهض من مكانه ورحل وسيطرت عليه الوحشة مرة أخرى بلا زعيق أو ضجيج.

وجدت نفسي ــ حين كنت متجهاً نحو الوهج المنبعث من قلب الظلام أقف وراء رجلين يتحدثان، فسمعت أحدهما يلفظ اسم (كورتز) ثم العبارات التالية:

ــ يجب الاستفادة من هذا الحادث المشؤوم.

لقد كان أحدهم مديراً للشركة فسلمت عليه وقال:

ــ أشاهدت طوال حياتك كهذا؟ إيه؟ إنه شيء لا يُصدَّق.

قال ذلك وانصرف وبقي الرجل الآخر في مكانه.

إنه مندوب الشركة من الدرجة الأولى وهو في مقتبل العمر، ينتمي إلى طبقة النبلاء، متحفظ قليلاً، يملك لحية صغيرة متفرعة إلى اتجاهات مختلفة أشبه بمذراة، منفصلاً بأنف معقوف، بدا يتحاشى الموظفين الآخرين، منفصلاً عنهم، أما هم فيقولون بأنه جاسوس المدير عليهم، ولكني لم أتحدث معه إلا قليلاً من قبل.

تبادلنا الحديث رويداً رويداً وابتعدنا عن هسهسة الأطلال، ثم دعاني إلى غرفته التي كانت تقع في البناء الرئيسي من المقر، ولمّا أشعل عود الثقاب تبين لي أن هذا الشاب الأرستقراطي لا يملك حقيبة أدوات الزينة الفضية الصنع فقط، بل يملك شمعة بكاملها، مع أن مدير الشركة وحده هو من يحق له في ذلك الوقت أن يمتلك الشموع، وثمة حصيرة محلية الصنع كانت تغطي الجدار المصنوع من الطين، علاوة على مجموعة من الحراب والرماح القصيرة والدروع والخناجر كانت معلقة كتذكار للعيد والنصر على العدو.

لقد عُهد إلى هذا الشخص صناعة القرميد، هذا ما قيل لي، ولكن لم يكن يوجد أي

أثر لأية قطعة قرميد واحدة في المقر........ مع انه يقيم هنا منذ أكثر من سنة ولا يزال بانتظار وصول القرميد، فبدا وكأنه عاجز عن صنع القرميد بدون أي شيء، وعلى أية حال لا يمكن أن يوجد البتة ومن غير المحتمل أن يصل من أوروبا، وهكذا بقيت الأمور غامضة بالنسبة لي ولا أعرف ماذا ينتظر، ولربما كان يفكر في إيداع خاص، إلا أنهم جميعاً ينتظرون، فعددهم يتراوح الستة عشر والعشرين مهاجراً ـــ شيئاً ما، ولقد أيقنت أنهم لا يمارسون عملاً غير مناسب، ويبدو ذلك من الطريقة التي يعالجون بها هذا الأمر، مع أن الشيء الوحيد الذي يحل بينهم هو المرض كما أيقنت أنا شخصياً، ولقد كانوا يقطعون الوقت باغتياب بعضهم البعض بطريقة مجنونة، ويسود المقر جو من التآمر المستمر، مع انه لم يحدث أي شيء من هذا القبيل أبداً، ولم يكن الأمر طبيعياً تماماً كأي شيء آخر، كالادّعاء الإنساني كما في حديثهم أو كحكومتهم أو كطرقهم في إنجاز العمل، ولقد كان الشعور الوحيد الذي يساورهم مرهَناً بالرغبة في الحصول على موعد مع مركز تجاري حيث سلطة العاج، ففي هذه الطريقة وحدها يكسبون فوائد بنسب مئوية، إنهم سيتآمرون ويشتمون ويحقدون على بعضهم البعض لهذا الحساب فقط، آه! كلا! وحق السماء! فثمة شيء في هذا الكون يسمح لرجل أن يسرق جواداً بينما لا يحق لآخر مجرد النظر إلى الرسن.

سرقة جواد! لا بأس، لئن فعل ذلك فبوسعه أن يمتطيه، ولكن هناك طريقة خاصة تتعلق بالنظر إلى الرسن بحيث يمكنك أن تستفز القديس الأكثر تسامحاً في الدنيا وتجبره على الرفس برجله.

لم تتكون لديّ فكرة عن رغبته في أن يكون اجتماعياً، ولكن عندما كنا نتحدث راودتني فكرة أن هذا الشخص يهدف إلى شيء ما، وفي الواقع إنه يريد أن يُخرج ما لديّ من معلومات، فقد كان حديثه يدور دائماً عن أوروبا وأهلها الذين حسب زعمه أعرفهم، كطرحه عليّ أسئلة إيمائية مثلاً، فيما يتعلق بمعارفي في المدينة الدفينة[٦] وما شاكل

[٦]: المدينة المتعلقة بدفن الموتى.

ذلك، ولقد كانت الصغيرتان تلمعان، كقرص حجر البلق ـــ مع فضول ما ـــ مع أنه يحاول أن يحتفظ بشيء ما من الشموخ والكبرياء، ولقد أصابتني الدهشة في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما أصبحت فضولياً بشكل مخيف بحيث أتساءل ما الذي يمكن أن يحصل عليه مني.

لقد كان مثيراً جداً أن تراه يؤنب نفسه لأن جسدي كان بالواقع يكتز البرد فقط، و لم يكن في رأيي سوى ذلك الهم المتعلق بمشكلة المركب المحطم، ومن الواضح أنه عدني شخصاً مواربا في الكلام،قليل أدب، ولكنه انفجر أخيراً واستشاط غضباً ولجأ إلى التثاؤب في محاولة منه لكتم أية حركة تنم عن الغضب، فنهضت من مكاني ثم لاحظت رسماً تخطيطياً زيتي اللون على لوح، يمثل امرأة ترتدي عباءة معصوبة العين، تحمل بيدها مشعلاً مضيئاً وقد بدت الخلفية معتمة، مظلمة إلى حد ما، ولكن حركة المرأة بدت محتشمة، إلا أن ضوء المشعل الملقى على وجهها ولدَّ شعوراً من الشؤم والفساد.

لقد استولى على ذلك الرسم، فوقف محتشماً بجواري من باب اللياقة، يحمل بيده زجاجة شمبانيا صغيرة فارغة وقد ثبّت على فوهتها شمعة، ورداً على سؤالي أخبرني بأن السيد كورتز مَنْ رسمها في هذا المقر بالذات منذ سنة تقريباً، بينما كان مقيماً هنا منتظراً الذهاب إلى مقره التجاري. فقلت له: أرجوك أخبرني، مَنْ يكون السيد كورتز؟

أجاب بنبرة مقتضبة وهو ينظر بعيداً.

ـــ إنه رئيس المقر الداخلي.

فقلت ضاحكاً: فُرضَ بالقوة! ثم أردفت:

ـــ وأنت صانع القرميد في المقر الرئيسي، الكل يعرف ذلك؟

لاذ إلى الصمت قليلاً ثم قال:

ـــ إنه معجزة، إنه رسول الشفقة والعلم والتقدم، وإن الشيطان وحده من يعرف مواهبه الأخرى.

غيّر لهجته ليتكلم بنبرة خطابية مفعمة بالحماسة فقال:

ــ إننا نريد ــ لأجل تبني قضية استلمناها من أوروبا ذكاء أكثر حدة، وحالات من المشاركة الوجدانية أكثر اتساعاً وتفرداً في اتخاذ القرار. فسألته:

ــ من يقول ذلك!

فأجابني أشخاص كثيرون والبعض منهم ذكر ذلك كتابة،وهكذا قد حضر إلى هنا بكينونة خاصة كما ينبغي أن تعلم. فقاطعته والدهشة قد اعترتني:

ــ لماذا يتحتم عليّ أن أعرف ذلك؟

لم يعر كلامي أي اهتمام وقال:

ــ نعم، إنه اليوم رئيس أفضل مركز وسيصبح في العام القادم مساعد مدير الشركة، بعد سنتين أو اكثر واعتقد أنك تعرف ماذا سيصبح بعد سنتين، وأظنك تنتمي إلى الطاقم الجديد، طاقم الفضيلة، فنفس الأشخاص الذين أرسلوه إلى هنا أوصوا بك خيراً.

ــ آه، لا تقل عكس ذلك، فلديّ عينان يعرفان متى وكيف يثقان.

اشرق النور في عيني، فمعارف خالتي شخصيات مرموقة على ذلك الشاب، فانفجرت ضاحكاً لأسأل:

ــ هل تقرأ مراسلات الشركة السرية؟

لم يصدر عنه أي تعليق، فقد كان الأمر مسلياً للغاية، فتابعت بنبرة قاسية:

ــ عندما يصبح السيد كورتز المدير العام فستفقد أية فرصة لك.

أطفأ الشمعة فجأة لنخرج سويةحيث يبزغ القمر في هذا الوقت بالذات، فشاهدنا قامات سوداء تتجول بتكاسل وهي تسكب الماء على الوهج، وينبعث صوت خافت حيث تعبر باخرة النهر صعوداً تحت ضوء القمر، في حين كان زنجي يتلقى ضربات موجعة ويئن ويتأوه، فقال رجل ذو شاربين لا يعرفان التعب، بعد أن ظهر فجأة بجوارنا:

ــ ما هذه الليلة التي أثارها هذا البهيم! إنه ينال ما يستحق، انتهاك حرمات، فلينل العقوبة المناسبة ــ الضربة القاضية بلا رحمة أو شفقة، إنه لا يستحق الرحمة أو الشفقة، فهذه هي الطريقة التي نضع بها حداً لأي حريق مفتعل في المستقبل، لقد كنت أخبر المدير

بذلك منذ لحظات.

قال ذلك ثم أحس بوجود رفيقي، فبدا مكسوف الخاطر مُنحنيَ الطرف ليضيف بحماسة بائنة:

ـــ إنه لأمر طبيعي، ها، إنه خطر- اضطراب! قال ذلك وتوارى عن الأنظار.

تابعت سيري نحو حافة النهر فتبعني الآخر وترامى إلى مسمعي ووشوشة قاسية دست نفسها في أذني:

ـــ كومة من الغرور هيّا بنا.

هذا ويمكن مشاهدة المهاجرين جماعات وجماعات يتناقشون وهم يقومون بحركات الجسد وإيماءاته والكثير منهم ما زال يمسك بعصيهم وأظنهم يصطحبونها معهم إلى السرير أثناء الليل.

تقف الغابة تحت سياج، أشبه بشبح تحت ضوء القمر، وعبر هذا التحرك المعتم وعبر تلك الأصوات الخافتة لهذه الباحة المتذمرة، يخترق سكون اليابسة صميم كل فؤاد ليخترق سره الغامض، بل وعظمته الحقيقية المذهلة لحياته المستترة، فذلك الزنجي الجريح يئن ويتألم منهوك القوى في مكان ما بالقرب من هنا، ثم أطلق بعد ذلك زفرة عميقة جعلتني أخطو بعيداً عن المكان. شعرت بيد تنسل تحت ذراعي، فقال مرافقي:

ـــ لا أود أن يُساء فهمي من قبلك تحديداً، فمن المحتمل أن تقابل السيد كورتز قبلي بزمن طويل، وقبل أن أُحظى بهذا الشرف في مقابلته لا أريد أن يكوّن فكرة سيئة عن وضعي الحالي.

لقد دعوت هذا الذي على هيئة ميفو ستوفلس(٧) أن يسترسل، وقد خُيِّل إليّ بأنني أود أن أثقبه بسباتي مع أنني قد لا أجد سوى قذارة رخوة، فهو كان يخطط منذ زمن بعيد كي يصبح مساعداً للمدير خطوة بخطوة تحت إمرة هذا الرجل الحالي، وقد تمكنت من أن أدرك بأن مجيء السيد كورتز قد خيّب آمالهما، فاندفع يحدثني بتهور ولم أحاول أن

(٧): أحد الشياطين السبعة الرئيسية في أساطير القرون الوسطى.

أقاطعه، فأسندت كتفي إلى حطام مركبي المنتصب عالياً على المنحدر أشبه بالهيكل العظمي لحيوان نهري ضخم الجثة، أقسم بجوف، بأن رائحة الوحل، الوحل المتعفن القديم قد اكتنزت في أنفي، وأن استقرار الغابة البدائية التامة قد تربعت أمام ناظري، فهناك ثمة بقع تسطع على الخليج الصغير المظلم، في حين نشر القمر طبقة فضية رقيقة فوق كل شيء ، فوق الأعشاب الضارة، فوق الوحل، على جدار البنايات المتشابكة التي يعلوها جدار المعبد، فوق النهر الكبير الذي بمقدوري أن أراه عبر فجوة معتمة تلمع، تلمع كما كان متوقعاً، أبكماً، بينما اخذ الرجل يثرثر ويتكلم بانفعال حول نفسه، فقلت لنفسي:

ما مغزى هذه السكينة المتربعة على صفحة هذا الاتساع المترامي الأطراف التي ترقبنا نحن الاثنين؟ أيعني ذلك إغراء أم تهديداً؟ هلاّ شردنا فوصلنا إلى هذا المكان بصورة لا واعية؟ أبوسعنا توجيه هذا الشيء المنفعل؟ أم أن هذا الشيء يواجهنا نحن الاثنين؟ لقد شعرت كم يكون كبيراً، كبيراً جداً، ذلك الشيء الذي لا يستطيع أن ينطق، ولربما كان أصماً بما فيه الكفاية.

ماذا كان في الداخل؟

لقد استطعت أن أرى القليل من العاج المستخرج من هناك، ولقد سمعت بأن السيد كورتز كان هناك، ولقد سمعت الكثير عن ذلك أيضاً.

الرب وحده يعلم!

وما من صورة تتعلق به ليس أكثر مما حدثوني عن ملاك أو شيطان، وقالوا بأنه كان موجوداً هناك، لقد آمنت بذلك القول كما يؤمن المرء بوجود سكان في كوكب المريخ، فلقد التقيت ذات مرة بصانع أشرعة اسكتلندي الجنسية، حيث أكد لي وجود كائنات بشرية على سطح المريخ، وإذا ما طرحت عليه سؤالاً فيما يتعلق بمظهر هؤلاء الأشخاص وكيف يتصرفون فإنه سيّصاب بالخجل والإرباك، وسوف يتمتم بهذه الكلمات: إنهم يمشون على الأربعة.

وإذا ما ابتسمت فسوف يهاجمك بالتأكيد، وعلى الرغم من أنه في الستين من عمره،

أمّا بالنسبة لي فلن أخوض معركة من أجل كورتز، ولكنِ ذهبت للاعتقاد بأن أمر وجوده كذب، وكما تعلم فإني أمقت الكذب ولا أطيقه، وليس ذلك لأنني أكثر استقامة من بقية الناس، وإنما ببساطة لأن الكذب يخيفني، ففي الكذب تكمن وصمة الموت ورائحة الفناء وذلك ما امقته في هذا الكون، وهذا ما أود أن أنساه وهو يجعلني تعيساً ومريضاً تماماً كما لو أنني أقضم شيئاً ما متعفناً، وهذا بتقديري مزاج خاص.

لا بأس، لقد جعلت هذا الشاب الأحمق يعتقد بأنه صادق بكل ما يتخيّله، تماماً كاعتقاده بتأثيري الخفي في أوروبا، فأصبحت لفترة وجيزة مدّعياً كبقية الرجال المفتونين، ربما قد يكون هذا التحول ساعدني على مشاهدة كورتز الذي كان بالنسبة لي مجرد كلمة، فأنا لم أشاهد الرجل من قبل أبداً، مثلكم تماماً، هل تشاهدونه؟

أتتطلّعون على الحكاية؟ أتشاهدون شيئاً ما؟

يبدو لي وكأنني أحدثكم عن حلم، محاولاً القيام بعمل فاشل، فلا يستطيع أي حلم نقل إحساس الحلم المكّون من العبث والمفاجأة والدهشة إلى رعشة ثورة فيها الكفاح المرير، وقد كانت تراودني فكرة اعتقادي بواسطة شيء لا يُصدق كجوهر أحلام، توقف قليلاً ليتابع:

ـــ لا، هذا أمر مستحيل، فمن المستحيل نقل حياة الرفاهية لأي عصر خاص بوجود معين، وهذا ما يؤكد حقيقة جوهره الدقيق، ويبدو من المستحيل كما نحلم بمفردنا.

توقف مرة أخرى ليتأمل بعيداً، ثم استطرد:

ـــ بالطبع أيها الرفاق، بإمكانكم أن تشاهدوا الأمور أكثر مني، لقد رأيتموني وتعلمون بأني..

أصبح الليل قاتماً جداً بحيث أصبح من الصعب علينا ونحن المستمعون أن نرى بعضنا البعض، فبقي لوحده لفترة طويلة، بحيث لم يعد لنا مجرد صوت، فلم يتفوه أي كان بأية كلمة، ويبدو أن الآخرين غطوا في النوم وبقيت أنا يقظاً، فأصغيت وأصغيت بانتباه إلى كل جملة أو كلمة كي أهتدي، ربما، إلى مفتاح لغز هذا القلق النابع من هذه الحكاية التي

تشكل نفسها دون الاستعانة بشفاه البشر في هذا الجو الليلي الكئيب الذي يُخيّم على النهر.

بدأ مارلو مرة أخرى يقول:

ـــ أجل، لقد أفسحت له المجال ليتابع، وأتخيّل كم كان مسروراً للقوى التي كانت تكمن ورائي، لقد فعلت! مع أنه لم يكن يوجد ورائي أي شيء سوى ذلك المركب البخاري المحطم، القديم، المشوّه، المصاب بضربات متتابعة والذي أسندت ظهري إليه، في حين كان يتكلم بفصاحة حول حاجة كل إنسان كي يستمر، وما إن يصل أي شخص إلى هذا المكان فإنه يفعل ذلك كي يتأمل بالقمر.

لقد كان السيد كورتز عبقرياً عالمياً، ولكن حتى العبقري نفسه فإنه يفضل استخدام أدوات وافية بالغرض ليقوم بعمله كالرجال الأذكياء. إنه لم يُصنِّع القرميد، ولكن لماذا، قد يكون المانع جسدياً، ومع ذلك فقد قام بأعمال لها علاقة بالسكرتاريا لدى مدير الشركة. ولعلّ سبب ذلك يعود إلى أنه ما من رجل واعٍ يرفض بطيش ثقة رؤسائه، فهل أدركت أنا ذلك؟ نعم، لقد أدركته، وهل أريد اكثر من ذلك؟ وما كنت أريد اكثر من ذلك؟ أقسم إنني ما أدركته فعلاً هو مسامير البرشام! مسامير البرشام كي أنجز عملي بنجاح، التي يوجد صناديق كثيرة منها على الساحل، صناديق مكدسة فوق بعضها البعض، وبعضها قد انفجر والآخر قد تمزق، وبوسعك أن تركل مسماراً مفقوداً لدى كل خطوة تقوم بها في باحة هذا المركز في كل ثانية عند منحدر التل، وقد تدحرجت مسامير البرشام داخل مقبرة الموت، وبوسعك أن تملأ جيوبك بمسامير البرشام إلى أن ينحني ظهرك من فرط الحمولة، وما من مسمار يوجد في المكان الذي تريد، لقد كنا نملك العديد من الألواح ولكن لا يمكن توصيلها ببعضها البعض، وفي كل أسبوع يترك ساعي البريد ـــ الزنجي طويل القامة المقر ليتجه نحو الساحل حاملاً على كتفه حقيبة الرسائل وبيده عصا، في حين تصل قافلة ساحلية ولعدة مرات في الأسبوع محملة بالبضائع للاتجار بها، كقماش الكاليكو والذي ما إن تراه حتى يقشعر بدنك لذلك، وخرزات زجاجية تبلغ

قيمتها البنس وربع البنس، ومجموعة مختلطة من المناديل القطنية المرقطة، وما من أثر لمسامير البرشام، ولقد جاء بهذه البضائع ثلاثة حمّالون يحتاجون إلى مركب بخاري عائم لاستخدامه.

بدا الآن ودوداً، ولكني أتخيّل بأنه مَنْ سبّب لي خيبة أمل في نهاية الأمر، لأنه قرر بأنه من الضروري أن يخبرني بأنه لا الخير ولا الشيطان يمكن أن يدع المرء أمراً كهذا بمفرده، أخبرته بأنني قد تأكدت من صحة ذلك، ولكني بحاجة إلى مسامير البرشام وهذه المسامير كان يريدها السيد كورتز فعلاً لو علم بالأمر.

كانت الرسائل تتوالى أسبوعياً إلى الساحل، فصرخ:

ـــ سيدي العزيز، إني أكتب لأطلب بحزم ـــ مسامير البرشام. للرجل الذكي وسيلة واحدة، فقد غيّر طريقته ليصبح بارداً جداً، وأخذ يتحدث فجأة عن فرس البحر، وقد دهشت لكوني أنام عند حافة المركب دون أن يستبد بي القلق، حيث واصلت مسألة الإنقاذ ليلاً ونهاراً، ولقد كان يوجد فرس بحر عجوز، سيئ العادة حيث كان قد خرج إلى الضفة وبدأ بالتجوال ليلاً فوق ارض المركز، فكان الرجال يتجمعون ليهاجموها مستخدمين جميع أنواع الأسلحة التي تصل إلى أيديهم، ومنهم من كان يقضي الليل بكامله لاصطياده، إلاّ أن محاولتهم كانت تبوء بالفشل مما جعله يقول:

لهذا الحيوان حياة فاتنة! ولكن هذا القول في هذا البلد لا ينطبق إلاّ على البهائم، ولا يوجد أي رجل، أتفهمني؟ فما من رجل هنا يتمتع بحياة جذّابة، توقف هناك قليلاً للحظة قصيرة، تحت ضوء القمر وبدا أنفه المعقوف منحرفاً قليلاً وعيناه (كأنهما من مادة الميكا الزجاجية) تلمعان دون أية طرفة عين، قال لي بعد ذلك وبلهجة مقتضبة على نحو غير لائق: مساء الخير. قال ذلك ومشى بعيداً.

استطعت أن أراه مترعجاً وحرارته مرتفعة جداً، مما جعلني أكثر تفاؤلاً، ولقد سُررت كثيراً عندما رحل عني وعدت إلى صديقي المؤثر، إلى مركبي المحطم والملتوي والذي ما هو إلا أشبه بعلبة تنك، تسللت بصعوبة إلى متنه، فكان سطحه يرن تحت قدمي أشبه بعلبة

البسكويت الفارغة (Huntley and Palmers) والذي ركل على طول المزراب ، فلا شيء ينم عن المتانة من حيث الصنع وهو أقل جاذبية من حيث الشكل، ولكني أمضيت الوقت الطويل المضني من أجله. ولا عجب إن وقعت على عشقه، فما من صديق آخر يمكنه أن يؤدي لي خدمة على هذا النحو بهذا المقدار، فقد قدم لي الفرصة السانحة للخروج قليلاً من البلد ولاكتشاف ما يمكن تحقيقه، فأنا لا احب العمل، وما من رجل يحبه ولكني أحب ما يكمن في العمل، فالفرصة أن تجد نفسك، كي تجد ذاتك، من أجلك وليس من أجل الآخرين، أي ما لا يمكن أن يدركه أي رجل آخر، بمقدورهم أن يبصروا فقط مشهداً، ولا يستطيعون أبداً أن يدركوا المعنى الحقيقي.

لم أُدهش عندما رأيت شخصاً ما يجلس عند مؤخرة المركب، برجلين تتدليان فوق الوحل، وكما ترى فإني أقابل القليل من الميكانيكيين الموجودين في تلك المحطة مع أن المهاجرين يحتقروهم، وذلك بسبب تصرفاهم المشينة، حسب اعتقادي، فكبير العمال مثلاً وعمله التجاري صانع مرجل عامل جيد ذو شعر سبط[^8] متهدل، ناتئ العظام نحيل شاحب ورأسه أصلع تماماً كراحة يدي، ولكن شعره المتساقط بدا وكأنه التصق بذقنه ثم نما وترعرع في موضعه الجديد إذ تصل لحيته حتى خصره، وهو أرمل وله ستة أولاد في ريعان العمر (وقد عهد برعايتهم إلى أخته) لقد كان مولعاً بتطيير الحمام وهو مفعم بالحماسة وخبير في أمور التذوق،ولا عجب أن عمله لساعات عديدة، كي يتحدث عن أولاده وعن طيور الحمام، وكان يضطر أثناء عمله بربط تلك اللحية الطويلة بفوطة بيضاء يأتي بها عادة لتحقيق هذا الغرض، وخاصة عندما يجد نفسه مضطراً إلى الزحف في الطين تحت قاع المركب التجاري، وقد عقد الفوطة فوق أذنيه وقت المساء تراه يجلس القرفصاء عند ضفة النهر، وهو يشطف الغلاف الخارجي بماء الجدول بعناية فائقة، ثم ينشره بأبهة على الشجيرات المتشابكة لتجفيفه.

صفعته على مؤخرته وصرخت به.

[^8]: غير جعد

ـــ سوف نحصل على مسامير البرشام.

اندفع واقفاً على قدميه ليصرخ:

لا، لا مسامير البرشام!

قال ذلك وكأنه لم يصدق أذنيه، ثم قال بصوت خافت: هذا أنت.. إيه! لست أدري لماذا تتصرف كالمجانين؟ وضعت إصبعي عند جهة الأنف وأومأت برأسي بشكل غامض ثم صرخت.

إنه مناسب لك!

طقطق أصابعه فوق رأسه ورفع رجله فحاولت حينئذ تأدية رقصة «الجيغ» فقفزنا على ظهر المركب الحديدي لتنبعث قعقعة من هذا المركب القديم المعطل، في حين تردد الغابة العذراء ـــ عند ضفة الخليج الصغير الآن ـــ الصدى بدحرجة رعدة عند المحطة النائمة، ولقد جعلتْ هذه الجَلَبةُ السريعة بعض المهاجرين يجلسون منتصبين في فراشهم داخل أكواخهم القذرة، وظهرت في هذه الأثناء قامة سوداء تنشر الظلمة على مدخل كوخ مدير الشركة المضيء ،وبعد ذلك تتوارى لتظهر مرة أخرى إلى أن يختفي المدخل نفسه، فتوقفنا ليسيطر الصمت الذي جرفه وقع خطواتنا بعيداً من جديد، قادماً من أعماق الأرض، فبدت جدران النباتات الكبيرة وكتلة جذوع الشجر الوافرة والمحاطة بالأغصان والأوراق والأغصان الرئيسية وجبال الزهور المتدلية، بدت جامدة بلا حراك تحت ضوء القمر أشبه بغزو صاخب هائج لحياة بعيدة الغور، أشبه بموجة متدحرجة من النباتات وقد تراكمت لتمتطي الجدول المائي الصغير، وقد بدت مستعدة لتسقط فوق الجدول وتجرف معها بعيداً كل رجل تافه عن هذا الوجود الضئيل بلا حراك. وترامى إلى سمعنا من بعيد تفجر خافت من الشجر تماماً كما لو أن سمكة تأخذ حماماً من النهر، فقال صانع المرجل بلهجة معقولة:

لماذا لا نحصل على مسامير البرشام؟ بعد كل ذلك؟ لماذا لا؟ بالفعل لماذا؟ لا أعرف أي سبب لعدم الحصول عليها؟

فقلت بثقة، ستصلنا خلال ثلاثة أسابيع.

ولكنها لم تصل وبدلاً من وصول مسامير البرشام جاءنا الغزو وإنزال العقوبات وزيارة التفتيش، لقد وصلتنا هذه الأشياء تدريجياً خلال الأسابيع الثلاثة المتعاقبة. شعبة إثر شعبة وكل شعبة يرأسها حمار يحمل رجلاً أبيضاً يرتدي ملابساً جديدة منتعلاً حذاء مدبوغاً، يرد التحية من عليائه إلى اليمين تارة، وإلى اليسار مرة أخرى للمهاجرين المتأثرين به، في حين تقتفي أثر الحمار جماعة من الزنوج المشاكسين المترخيي القدمين، بالإضافة إلى عدد كبير من الخيم والكراسي الخفيفة وإلى علب من التنك وإلى صناديق بيضاء وحزم سمراء اللون، وسوف تُطرح في أرض الباحة، حيث يسود حلبة المحطة جو من الغموض، وهكذا وصلت خمس حلقات تنطوي على الفوضى و الاضطراب في تصرفاتها، وفي حوزتها غنائم لا تُعد و لا تُحصى، وقد جيء بها من محلات المؤن والأطعمة، ويبدو أن هذه الأشياء الثقيلة التي ينقلونها بصعوبة قد تم الاستيلاء عليها بعد شن هجوم مفاجئ، وهي خليط لا يمكن التخلص منه، خليط أشياء محتشمة بحد ذاتها، ولكن حمق الإنسان جعلها تبدو غنائم لصوص.

هذه العصابة المتخصصة أطلقت على نفسها (بعثة إلدورادو الاستكشافية) وأعتقد بأنهم قد أقسموا على سريتها، إلاّ أن كلامهم كان أشبه بحديث لصوص البحر بما في ذلك من خسة، فكلامهم ينطوي على المغامرة الهوجاء، المفتقرة إلى البسالة وعلى الطمع المفتقر إلى الجرأة وعلى الشراسة التي تعوزها الشجاعة، فما من ذرة من الحيطة والتبصر أو من أية نية صادقة في صدر هذه الجماعة بكاملها، وهم غير مبالين سواءً أكانت هذه الأشياء مفيدة للعمل أو لم تكن، فرغبتهم الحقيقية تتمثل في انتزاع الكتر من باطن الأرض بدون أي وازع أخلاقي، وكل همه الحصول على ما يسرقونه سليماً، ومن يدفع تكاليف هذا المشروع النبيل؟ لست أدري!

فقد كان عم مديرنا هو رئيس العصابة!

وهو من حيث المظهر يشبه اللحام في حي فقير بعينين ينمان عن مكر حالم، متنقلاً

بكرشه الضخم بتبجح ومباهاة على قدمين، في حين تقوم عصابته بمداهمة المركز لتنشر القلق والإزعاج ولا تراه يكلم أحداً فيما خلا ابن عمه، يتنزهان معاً طوال اليوم ويكاد رأساهما يلتصقان وهما يسترسلان في حديث ودي دون أية كلفة.

لقد قررت عدم إزعاج نفسي بمسامير البرشام وفي الواقع هناك حد ما لا يمكن تجاوزه بشأن هذه القدرة المتعلقة بهذا النوع من الحماقة هذه، فقلت:

ـ تباً لها، سأفكر من الآن فصاعداً بكورتز مع أنني لم أكن مهتماً به.

لا، وما زلت أود معرفة إذا كان هذا الرجل سيصل إلى القمة وقد رحل إلى هنا مزوداً بالمفاهيم المثالية وكيف سيدير أعماله هناك.

بينما كنت مستلقياً ذات مساءً على ظهر مركبي، سمعت أصواتاً تقترب مني تدريجياً، فكأن العم وابن أخيه يتجولان على طول ضفة النهر، فألقيت برأسي على ذراعي ثانية لأغوص في نوم خفيف، حينئذ ترامى إلى أذني صوت شخص ما يقول:

ـإني لست مؤذياً ـ تماماً كطفل ـ ولكني أرفض أن يفرض أوامره عليّ أي شخص آخر. فهل أنا المدير أم لا؟ لقد أمرت بإرساله إلى هناك، إنه شيء لا يُصدق. فأدركت بأنهما كانا يقفان عند الضفة المحاذية للجزء الأمامي من المركب،تحت رأسي تماماً، فلم أتحرك، بل لم أكن قادراً على الحركة لأن النعاس كان يغلبني. فدمدم العم:

ـ إنه لأمر مزعج.

فرد عليه الآخر:

ـ لقد طلبت من الإدارة أن ترسله إلى هناك، من أجل اختبار مقدرته على هذه الأمور، ولقد استفسرت عن هذا الموضوع بشكل كامل لأتأمل المكانة التي يتمتع بها، أليس ذلك أمراً مرعباً؟

اتفق الاثنان على أن الأمر مخيف جداً، ثم سمعنا ملاحظات عدة غريبة.

دعها تمطر، وليكن الطقس جميلاً، رغم انفه.

لقد نالت هذه الكلمات المتقاطعة السخيفة من نعاسي، وما كدت أستعيد صحوتي

حتى سمعت العم يقول:

ــ قد يساعدك الجو للتخلص من هذه المشكلة، أهو لوحده هناك؟

فأجاب المدير:

نعم، لقد أرسل مساعده إلى النهر يحمل الرسالة التالية:

(دع هذا الشيطان المسكين يخرج من البلد ولا تزعجني بإرسال هذا النوع من الرجال ثانية، أفضل البقاء وحيداً بدلاً من الاستعانة بمثل هؤلاء الأشخاص الذين ترسلهم إليّ).

لقد مضى أكثر من عام، وهل تستطيع أن تتخيّل مثل هذه الوقاحة؟ فسأله الآخر بصوت مبحوح:

وهل حدث أي شيء آخر بعد ذلك؟

قال بتشنج:

ــ العاج... كميات وفيرة من الصنف الأول، كميات وفيرة ولكن اكثر إزعاجاً من سابقه.

سأله الآخر وقد بدا صوته أشبه بصوت دوي ثقيل: وبماذا؟

فأجاب بنبرة حازمة : فاتورة بالسلع المباعة.

وقع صمت مطبق إذ كانا يتحدثان عن كورتز.

لقد استيقظت في هذا الوقت تماماً، ولكني بقيت مستلقياً على ظهري بارتياح بائن، فما من دافعٍ لتغيير الوضع، وسأله الرجل الأكبر بصوت متهدج وقد كان مستاءً جداً:

ــ كيف وصل كل هذا العاج بكل هذه الطرق؟

لقد وصل العاج إلى هنا مع قافلة من القوارب الطويلة الخفيفة بإدارة موظف إنكليزي كان برفقة كورتز، والذي بدا أنه يريد العودة في البداية إلى بلاده، حيث لم يكن المركز يحتوي حينذاك على بضائع ومواد غذائية، فقرر وبعد اجتياز ثلاثمائة ميلاً ــ العودة. وبالفعل شرع وحده يصنع قارباً صغيراً من تجويف جذع شجر Dugout مزوداً

بأربعة جذّافين، ثم سلك بعد ذلك مجرى النهر وفي حوزته العاج. يبدو أنهما قد أصيبا بالذهول لمثل تلك المحاولة فلم يتوصلا إلى تفسير هذا الدافع الذي يفي بالغرض، أما بالنسبة لي فقد تراءى لي كأني أرى كورتز للمرة الأولى، لقد كان ثمة ومضة ظاهرة: الزنوج الأربعة، الرجل الأبيض الوحيد الذي أدار ظهره فجأة لمركز المؤسسة الرئيسي للراحة والطمأنينة لشؤون الدار، متوجهاً نحو أعماق الأرض المقفرة، نحو مقره الفارغ المهجور، و لم أفهم الواقع لذلك، فقد يكون ببساطة زميلاً بارعاً حساساً محباً لعمله ولا شيء سوى ذلك، و لم يذكر اسمه ولو لمرة واحدة، وقد قال:

ــ كان ذلك الرجل!

ولئن وصف أحدهما الآخر بكلمة ذلك الهجين فكأنه يود أن يقول: ذلك الوغد وذلك الوغد قد أفاد بأن ذلك الرجل يعاني من مرض عضال وقد استعاد عافيته بشكل كامل.

خطا الاثنان بضع خطوات بعيداً، وأخذا يجوبان المكان جيئة وذهاباً وسمعتهما يقولان:

ــ مركز عسكري ــ طبيب ــ مئتي ميلاً ــ إنه بمفرده الآن، إعاقات محتومة ــ تسعة أشهر ــ ما من أخبار ــ إشاعات غريبة.

اقتربا مرة أخرى فسمعت المدير يقول:

ــ لا أحد على حد علمي، إلا إذا كان تاجراً جوّالاً، إنه شخص مؤذ، ذلك الذي يسلب العاج من السكان الأصليين. ولكن عمّ يتحدثان؟ فقد تبين لي بعد أن سمعت القليل من الكلام أن الشخص المفقود يقيم في مقاطعة كورتز، ذلك الرجل الذي لا يوافق عليه المدير.

دمدم الآخر قائلاً:

ــ لن تتخلص من المنافسة البشعة إلى أن يتم القبض على أحدهم ويحكم عليه بالموت شنقاً.

فتمتم الآخر:

ـــ بالتأكيد دعه يُشنق، لم لا؟

إن أي شيء، أي شيء يمكن أن يحدث في هذا البلد، ذلك ما أعنيه، ما من أحد هنا، أفهمت؟ إنه يستطيع أن يعرضك للخطر، ولكن لماذا؟ وإنك تحتمل الطقس وسوف تعمّر أكثر منهم جميعاً، فالخطر في أوروبا، ولكن هناك قبل أن أتخلى عن... ابتعدا عني. وبدأا يهمسان، ثم عاد الصوت ليرتفع من جديد.

ـــ إن سلسلة التأخيرات الاستثنائية ليست خطيئتي، لقد بذلت كل ما بوسعي.

تنهد الرجل السمين قائلاً:

ـــ إنه لشيء محزن جداً.

فتابع الآخر:

ـــ والسخافة المفسدة الكامنة في حديثه، لقد أزعجني تماماً عندما كان موجوداً هنا، يجب أن يكون كل مركز شبيهاً بنار هداية السفن على الطريق للإرشاد نحو افضل الأشياء بالمركز التجاري طبعاً، ويجب أن يكون أيضاً مركزاً لتطوير البشر وتطوير معيشتهم وتثقيفهم.

ـــ تصوّر ذلك الجحش يريد أن يكون مدير شركة إلاّ... أنه... وقف الآن هنا، ثابتاً في مكانه من جرّاء شعوره بالاستياء الشديد، فرفعت رأسي قليلاً ليصيبني الذهول عندما رأيتهما قريبين جداً مني تماماً تحت رأسي، فمن الجائز أن أقع فوق قبعتيهما حين كانا يحدّقان بالأرض مسترسلين بتفكير عميق، وكان المدير يجلد ساقه بغصن رقيق، أما قريبه الفطين فقد رفع رأسه وسأله:

ـــ أما زلت بصحة جيدة منذ قدومك حتى الآن؟

أجاب الآخر وقد جحظت عيناه علامة الدهشة البالغة:

ـــ من أنا؟آه! كتعويذة ـــ مثل التعويذة، أما الآخرون آه، يا إلهي! كلهم مرضى! وهم يموتون بسرعة مذهلة بحيث لا وقت لديّ كي أرسلهم إلى وطنهم، إنه شيء لا

يُصدق.

تمتم العم: هـــ ـــ م ـــ هكذا إذاً.

آه، يا ولدي، يجب أن تثق بذلك، أقول يجب أن تثق بذلك، أقول يجب أن تثق بذلك، رأيته يرفع يده ليقوم بحركة تجاوبت مع طبيعة الغابة والخليج الصغير والطين والنهر، فبدت لي وكأنها إيماءة بخسة قبالة وجه الأرض المضاءة بأشعة الشمس، وما هي إلا إيماءة مغرورة لهذا الموت الذي يختبئ، لهذا الشر المتواري في ظلام قلبه العميق، بدا الأمر مدهشاً للغاية، مما جعلني أقفز على قدمي والقي نظرة إلى الوراء على حافة الغابة، بقصد العثور على جواب يفي بهذا الغرض المعتم المنوط بالثقة، فكما تعلم، هناك بعض الأفكار المجنونة تراود المرء أحيانا، فالسكينة الراقية جابهت هذين الكائنين بصبر ينذر بالسوء والشؤم، منتظراً رحيل غزو خيالي الأطوار،

أقسما كلاهما بصوت عالٍ بعيداً عن الخوف على ما أظن ثم تظاهرا بأنهما لم ينتبها إلى وجودي إطلاقاً، ثم عادا إلى المركز حين مالت الشمس نحو الغروب، وكان كل منهما يتكأ على الآخر، وقد بديا كأنهما يجذبان بعضهما بصعوبة نحو الهضبة، بينما يثير طيفهما الضحك والسخرية حيث يتابعاهما جراً وبهدوء فوق العشب الطويل دون أن يخفيا راس نصل ورقة نبات واحدة.

في أيام قليلة، توغلت شركة "إلدورادو" في عمق البرية الصابرة والتي ينغلق عليها البحر تماماً كما ينغلق على الغوّاص، وبعد ذلك بمدة طويلة وصلت أنباء تفيد بأن جميع الحمير قد ماتت، مع أنني شخصياً لا اعرف أي شيء عن مصير الحيوانات الأخرى الأدنى مرتبة، فهي بلا شك، كسائر البشر، تنال ما تستحقه، ولم أحاول التحقيق في هذا الأمر، إذا كنت مضطرباً جداً لمجرد التفكير في اللقاء المرتقب مع «كورتز» في القريب العاجل (وعندما أقول قريباً جداً فإني أعني بصورة نسبية) وبعد انقضاء شهرين وصلنا إلى الضفة الواقعة تحت مركز "كورتز".

إنّ اجتياز ذلك النهر يعني أشبه بالسفر إلى الخلف، إلى بدايات الكون الأولى عندما

كانت الأرض تزخر بالنباتات وعندما كانت الأشجار الباسقة ملوك اليابسة: جدول صغير، صمت رهيب وثمة غابة لا يمكن اختراقها، وبدا الهواء دافئاً كثيفاً ثقيلاً ساكناً، وقد انعدم الفرح في بريق الشمس ولمعانها، واستمر الامتداد الطويل للمجرى المائي في جريانه مهجوراً موحشاً داخل الظلام وكآبة المسافات التي جعلته معتماً، وعلى ضفاف النهر الفضية تأخذ أفراس البحر حمّام شمس جنباً إلى جنب في حين تنساب المياه ذات المجرى الواسع عبر حشد عشوائي من الجزر المغطاة بالأشجار، وستضل طريقك وأنت تسلك النهر تماماً كما لو أنك تجتاز الصحراء وتناطح طيلة النهار أسراب السمك محاولاً العثور على القناة،إلى أن يساورك شعور بأنك مسحور، وانقطاعك للأبد عن كل شيء كنت على صلة بمكان ما كنت تعرفه، في مكان ما، بعيد وربما انتقلت إلى وجود آخر،قد تتوفر بعض اللحظات عندما يعود الإنسان إلى الماضي ويحدث ذلك أحياناً عندما لا تملك لحظة فراغ مع نفسك، ولكنها تأتي على هيئة حلم مضطرب وصاخب، ويتذكرها بدهشة بين الحقائق السائدة في عالم النبات الغريب والماء والسكون، وإنّ حياة السكينة تلك لا تشبه السلام إطلاقاً، فهي سكينة قوة لا تقهر تحضن نية مهتمة، فهي ترمقك بطريقة انتقامية.

لقد اعتدت عليها فيما بعد، و لم أشاهدها ثانية لأنه لم يكن لديّ وقت، فكان عليّ أن أرقب القناة، ويجب أن أميّز بالحدس رموز المنحدرات المتوارية، فكنت أراقب الصخور المتصدعة بحذر، فكنت أعلم كيف أجعل أسناني تصطك ببراعة قبل أن يتطاير قلبي وأنا أتقدم بمركبي واشق طريقي بصعوبة وبالصدفة مجتازاً يرزواً حاداً ماكراً بمقدوره أن يقضي على المركب المصنوع من القصدير، فينتهي الأمر بإغراق جميع المهاجرين، فكان عليّ أن احتفظ بنظرة خاصة على رموز الأخشاب الميتة التي استطعنا أن نقطعها لإبحار اليوم التالي، فعندما تجد نفسك أمام أشياء من هذا القبيل إزاء مجرد أحداث تتعلق بالسطح، فإن الحقيقة ـــ الحقيقة التي أخبرتك عنها تتلاشى، وإنّ الحقيقة الباطنية متوارية، ولكن لحسن الحظ، فإني أشعر بها في كل الأحوال، وغالباً ما شعرت بسكونها المبهم

يراقبني وأنا أقوم بالحيل السعدانية[٩]، تماماً كما نراقبكم وأنتم تؤدون الألعاب البهلوانية على الحبال المشدودة من اجل ـــ نصف مكافأة عن كل سقطة.

زمجر صوت: حاول أن تكون متحضراً يا مارلو. فأيقنت بوجود مستمع واحد بالقرب مني ـــ على الأقل.

ـــ أرجو المعذرة، لقد نسيت الحزن الذي سبب رفع قيمة السلعة، ولكن ما ضير السعر إذا نُفِّذ العمل بشكل جيد؟ فأنت تنفذ كل عملك على أحسن وجه،وكذلك أنا لا افعله بشكل سيئ ما دمت انوي عدم إغراق ذلك المركب في رحلتي الأولى، ولكنه ما زال مدهشاً بالنسبة إليّ، تخيّل رجلاً معصوب العينين يقود شاحنة على طريق رديء، لقد تصبّب مني العرق وارتعشت وأنا أمارس هذا العمل.

على كل حال، وبالنسبة للبحار، عليه أن يكشط قاع الشيء المفترض أن يطفو باستمرار تحت رعايته في خطيئة لا تغتفر، وقد لا يعلم ذلك أي كان، ولكن عليك ألا تنسى الارتطام أبداً ـــ أليس كذلك؟ إنها لصفعة في القلب، وأنت تذكر ذلك وتحلم به وتستيقظ ليلاً تفكر به بعد عدة سنوات فتصاب بالحمّى والقشعريرة على حد سواء. ولقد اُضطرتْ هي اكثر من مرة لخوض غمار هذا النهر فيما يحيط بها عشرون زنجياً من آكلي لحوم البشر، فيندفعون إليها ويدفعونها إلى الأمام ـــ ثم وقع اختيارنا على بعض هؤلاء الرجال لينضموا إلى طاقم البحّارة ـــ كان عددهم خمسة من آكلي لحوم البشر، يستطيع المرء أن يتعامل معهم بسهولة وأنا ممتن لهم، وفوق ذلك كله فإنهم لم يأكلوا بعضهم البعض أمامي، فقد أحضروا معهم طعاماً من لحم فرس البحر كان فاسداً، وقد اخترقت أنفي رائحة المنطقة المتوحشة الغامضة، بفٍ، لا أستطيع أن استنشقها الآن.

لقد كان يرمقني المدير وثلاثة أو أربعة من المهاجرين وبأيديهم عصيهم، وكان كل شيء يجري على خير ما يرام، فأحياناً كنا نصل إلى محطة قريبة من ضفة النهر، هرع إلينا فجأة بشوق مؤثر من كوخ موشك على السقوط، واندفع رجال بيض يلوّحون بأيديهم

[٩]: نسبة إلى السعادين .

علامة الفرح والدهشة والترحيب بقدومنا، بدا الأمر غريباً حقاً، وقد خُيِّل إليّ بأنهم لزموا هذا الكوخ تحت تأثير تعويذة ما، وقد بدوا كأنهم أسرى لتعويذة شيطانية، أما كلمة عاج فقد انتشر صداها في الفضاء لفترة وجيزة، وساد الصمت المكان من جديد على طول الألسنة المنبسطة الجرداء حول المنعطفات الهادئة بين الجدران العالية لطريقنا العاصف، حيث يتردد الصدى عبر خفقات أصوات جوفاء، صدى ضربة ثقيلة معيقة للدولاب المحرك في مؤخرة المركب.

ثمة أشجار، ملايين من الأشجار الضخمة العملاقة الشامخة والتي تضم عند جذرها المنحدر النهري وتعانقه خوفاً من النهر وتتحرك ببطء، وهدوء المركب الصغير المتسخ أشبه بخنفساء بليدة، وهي تزحف على سقيفة شامخة كالانطباع الذي يجعلك تشعر بأنك صغير جداً، تائه تماماً، ومع ذلك لا يجوز القول بأنه شعور مثبط للهمة، تزحف على مهل، وذلك ما كنت تريده أنت وإلى أين يمكن أن يتخيّلها المهاجرون، متجهة في زحفها وإني أجهل المكان — أي مكان، حيث يتوقعون الحصول على شيء، إني أراهن بأنها تتجه نحو كورتز حصراً، ولكن عندما يبدأ البخار يتسرب من أنابيب السفينة، فهذا يعني أننا نزحف ببطء شديد حيث تبدو الألسنة المنبسطة منفتحة أمامنا ومغلقة وراءنا، كما لو أن الغابة قد داست بمهل على سطح الماء لتقيم حاجزاً يمنعنا من الرجوع إلى حيث آتينا، فقمنا بالتوغل اكثر في جوف الظلام حيث كان المكان هناك هادئاً جداً، وفي الليل يتعالى أحياناً قرع طبول ما وراء ستار من الأشجار، فينتقل فوق النهر ويبقى هناك خافتاً ضعيفاً كأنه يحوم في الفضاء عالياً فوق رؤوسنا وحتى بزوغ الفجر، سواءً كانت تعني الحرب أو السلام أو الصلاة التي لا نستطيع أن نتنبأ بها، وقد بزغ الفجر مع انتشار السكينة الباردة، فكان الحطّابون نائمين ونارهم تشتعل ببطء، فمن الجائز أن تسمع فحيح غصن شجرة لتصاب بالرعشة، ولقد كنا نتجول مذعورين على أرض تعود إلى ما قبل التاريخ، وعلى أرض تكتسي مظهر كوكب مجهول، وقد استطعنا أن نتخيّل أنفسنا على شكل رجال أولين استولوا على ميراث بغيض فيه اللعنة، وقد تم إخضاعه وقهره مقابل ألم مبرّح،

جسدي ونفسي مقابل عمل شاق ومرهق، وفجأة وبينما كنا نخوض معركة المرور حول المنعطف، لمحنا بعضاً من نبات الأسل وحافة السقوف المعشوشبة، وفجأة تلا ذلك انفجار من الهتافات، وحركة دائرية لأطراف جسم سوداء ومجوعة أيادٍ كبيرة تصفق ومجموعة أرجل تدوس الأرض بقوة، وأجسام يتصبب منها العرق ومجموعة عيون متدحرجة، تحت تهدل أوراق النباتات الكثيفة والجامدة، بينما اخذ المركب يجر نفسه جراً على حافة نوبة انفعال حادة شريرة ومبهمة. وكان رجل ما قبل التاريخ يلعننا ويصلي من أجلنا، ويرحب بنا، من يستطيع أن يتنبأ؟ لقد أصبحنا منعزلين عن فهم وإدراك المناطق المحيطة بنا وأخذنا نتزلق نحو الماضي كالأشباح، وقد سيطرت عليها الدهشة ودبّ فيها الرعب كالرجال الأصحاء قبل أن تنتاهم فورة حماس في بيت المجانين، ولم نستطع أن نفهم لأننا كنا بعيدين جداً ولم نستطع أن نتذكر لأننا كنا نسافر عبر ليل العصور الأولى، تلك العصور التي مضت وتركت بالكاد رمزاً ولم تبقِ أية ذكريات.

بدت الأرض وكأنها ليست أرضاً، فنحن معتادون أن ننظر إلى شكل مكبّل بالقيود لوحش منهزم، ولكنك يمكن أن تنظر إلى هناك، إلى الشيء المتوحش بحرية، ولم تكن، الأرض أرضاً والرجال كانوا — لا ، لم يكونوا بشراً — لا بأس — وكما تعرف ، لقد كان ذلك من أسوأ الأمور — كالشك بكونهم غير بشر مسألة إنسانية وهذا الشك يصل إلى المرء ببطء ، ولقد ولولوا وقفزوا كالضفادع وداروا بسرعة حول أنفسهم وظهروا بوجوههم البشعة البغيضة ، وأكثر ما كان قبيحاً هو التفكر في طبيعتهم البشرية كطبيعتكم أنتم ، ولعلّ التفكير في قرابتكم البعيدة مع هذه الجلبة الموحشة شيء بشع ، نعم ، لقد كان بشعاً بما فيه الكفاية ، ولكن لو كنت بشراً بما فيه الكفاية لأقنعته بحقيقة أنه يكمن في داخلهم أثر حفيف لهذه الصراحة المرعبة الخاصة بتلك الجلبة — أثر لهذا الإشتباه المعتم الباهت المختص بطبيعتهم البشرية بحيث تستطيع أن تفهمها وأنت موغل في القدم عبر ليالي العصور الأولى ... ولم لا ؟ .... الإنسان قادر على تحقيق أي شيء ، لأن كل شيء يكمن في داخله ، الماضي بكل تفاصيله وكذلك

المستقبل ، وماذا بقي بعد ذلك ؟ فرح ، خوف ، حزن ، إخلاص ، شجاعة وهياج ؟ من يستطيع أن يتنبأ بذلك ؟ ولكن الحقيقة ! الحقيقة المجردة من عبـــاءة الـــزمن ، دع الأحمق يتثاءب ويرتعد خوفاً ، فيستطيع الإنسان أن ينظر إليه دون اللجوء إلى غمزة ما، ولكن أخيراً بشراً تماماً ككل البشر الموجودين على الشاطئ ، ومن واجبه أن يواجـــه تلك الحقيقة بقوته الشخصية الحقيقية ، بواسطة قوته الشخصية الفطرية ، بدون حاجة إلى المبادئ ، ولعلّ مكتسبات وملابس وأسمال بالية جميلة ، أسمال تتطاير مباشرة لمدى الحركة الأولى ، لا ، فأنت بحاجة إلى معتقد متأنٍ ، إنها دعوة لي للإنتماء إلى هذه الفئة الشيطانية — موجودة هناك ؟ حسن إني أسمع وأقبل ، ولي صوت أيضاً ولكن لا يمكن إسكاته إن كان ذلك خيراً أو شراً . ولكن وبالطبع فإن الأحمق بأمان دائمـــاً إذا مـــا انتابه خوف أو راودته عواطف جميلة ، ولكن مَن ذلك الشخص الذي ينتحر؟ إنـــك مندهش لماذا لم أذهب إلى الشاطئ كي أصرخ مولولاً ،أرقص ؟ حسن ، لا ، لم أفعل، إنك تزعم بأنها عواطف رائعة ، فلتُعلن العواطف الرائعة ، لم يكن لـــديّ وقـــت — ويتحتم عليّ أن أعبث وأبدد الوقت في أشياء تافهة كإستخدام خيط الرصاص الأبيض وقطع من القماش الصوفي لوضع ضمادات حول الأنابيب الناقلة للبخار المرشـــحة ، وهذا ما أود أن أخبرك به ، فكان عليّ أن أراقب توجيه دفة المركب، وتجنب جذوع الأشجار أو أغصانها القابعة في قاع النهر والتي تشكل خطراً على المركب والأخذ بهذا الوعاء التنكي لاجتياز هذا المجرى الخطر بأية وسيلة ممكنة ، فهناك مساحة من الحقيقة كافية ضمن هذه الأشياء لإنقاذ رجل حكيم ، ولا بد من إلقاء نظرة علـــى الرجـــل المتوحش الذي يزوّد المركب بالوقود من حين لآخر . فقد كان نموذجاً يعمل دائمـــاً قبالتي في الأسفل ولقد أدركت بأن النظر إليه عمل ..... فيه تنوير للعقل، تماماً كالنظر إلى كلب يقوم بدور استعراضي في تقليد ساخر ، حيث يرتدي بنطال الإنقاذ ، ولقد كان يرتدي قبعة من الريش ويمشي على رجليه الخلفيتين ، فقد تلّقى هذا الشاب تدريباً خاصاً لعدة أشهر وكان ينظر من خلال الفتحة الضيقة إلى مقياس ضغط البخار بجرأة

مذهلة ،ولهذا الشيطان المسكين أسنان منسقة بالإضافة إلى ثلاثة ندوب تزيينية على كل خد،وكان الأولى لهذا العبد أن يلازم ضفة النهر ويصفق بيديه ويحدث برجليه إيقاعات رقصة متوحشة بدلاً من ممارسة عمل شاق محشو بالمعلومات المتطورة ، لقد كان مقيداً لأنه تلّقى ثقافة لا بأس بها وما كان قد عرفه : لا بد من إختفاء المال الموجود داخل الشيء الشفاف، ولا بد للروح الشريرة داخل الرجل أن تستثيط غضباً عبر فداحة عطشه وسوف ننتقم انتقاماً مريعاً ، وقد بدا العرق يتصبب منه وهو منشغل بانشغال المرجل ومراقبة النار بخوف شديد .

(وفي حوزته تعويذة صنعها بعفوية ، مصنوعة من خرق بالية ، ربطها حول ذراعه ، بالإضافة إلى قطعة من العظم المصقول ، كساعة يد كبيرة علّقها بشكل مسطح عبر شفته السفلى) ، في حين تنساب بمحاذاتنا الضفاف النهرية المغطاة بأشجار الغابة ، تنساب على مهل ، تاركين وراءنا الجلبة المقتضبة الأميال الشاسعة التي لا تنتهي ، أميال من الصمت . وتابعنا زحفنا نحو كورتز ، ولكنّ الجذوع الناتئة بدت سميكة جداً وبدت المياه مضللة وضحلة ، وبدا المرجل كأنه يحمل في داخله شيطاناً واجماً ، وهكذا لا أنا ولا المرجل المزوّد بالوقود لدينا الوقت كي نحدّق في أعماق أفكارنا التي يقشعر منها البدن .

وصلنا إلى كوخ مصنوع من القصب على بعد خمسين ميلاً عند أسفل المحطة الداخلية ، فبدا العمود منحنياً وعليه مسحة كئيبة ، تعلوه خرق بالية لا يمكن تمييزها حيث كانت فيما يبدو راية ترفرف في الهواء بالإضافة إلى كومة حطب متراصة بانتظام،ثم اتجهنا إلى ضفة النهر فوقع بصرنا على قطعة مسطحة من لوح خشبي موضوعة فوق كومة الحطب مكتوب عليها بالريشة،وعندما توصلنا إلى فك رموزها كانت تعني :

– الحطب لك ، أسرع ، تقدم بحذر .

كان يوجد أيضاً ثمة إمضاء ولكنه بدا غير مفهوم وما من علاقة له بكلمة كـــورتز ، كلمة طويلة جداً ، أسرع ، إلى أين ؟ تقدّم نحو النهر ولكن تقدماً حـــذراً ، ولكـــن التحذير لم يلزمنا بالتصرف بحذر،وقد لا يكون لهذا التحذير علاقة بالمكان الذي وصلنا إليه ، بل بالمكان الذي نبلغه بعد التقدم نحوه ، هناك خطأ ما ، ولكن ما هو ؟ وكـــم يبلغ تأثيره ؟

تلك كانت المعضلة ! فقد انتقدنا بعنف وحماقة مثل هذا الأسلوب التلغرافي ، فالأجمة المحيطة بنا لا تفيدنا بشيء ، وبدا لنا المكان المقصود غير بعيد فعلاً . ولقد واجهنا ستاراً أحمراً ممزقاً مصنوعاً من النسيج القماشي حيث كان معلقاً عند مدخل الكوخ وكـــان يرفرف حزيناً تحت أبصارنا ، أما المسكن فقد تم تفكيكه من قبل ولقد تمكنا من رجل أبيض كان يقيم هنا ليس منذ زمن طويل ، ومازالت طاولة رثة موجودة هنـــا وهـــي عبارة عن لوح خشب طويل وسميك ، مرفوع على دعامتين ، إضافة إلى كومة مـــن الزبالة تكدست في زاوية مظلمة ، وقمت بعد ذلك بالتقاط كتاب عثرت عليه قـــرب الباب ، كتاب فقد غلافه وبدت صفحاته قذرة جداً نتيجة تقليب الصفحات المتكرر ، إلاّ أن خلفية الكتاب بدت جميلة ، محاك من جديد بخيوط قطنية بيضاء مازالت تحتفظ بنظافتها ، لقد كانت لُقيا رائعة . وكان بعنوان (استفهام حول بعض النقاط المتعلقة بفن الملاحة) بقلم رجل يُدعى " تورناوسن " – واسمه وارد كربّان سفينة في أسطول صاحب الجلالة .

بدا الموضوع برمته مملاً بما فيه الكفاية ، وقد كان مزوداً برسوم بيانية توضـــيحية وبجداول رسوم نموذجية تثير الإشمئزاز ، ولربما يكون عمر النسخة ستين عاماً . تناولت هذا التراث المذهل بيدي برقة فائقة ، خشية أن يذوب بين أصابعي، ومن وراء الستار كان " تاوسون " يحقق جدياً في قضية كسر وتحطيم سلاسل وبكرات وحبال الســـفن

وقضايا أخرى ، ولا يمكن القول بأنه كتاب جذّاب جداً ليأسر القلب ويسيطر على اللب ، ولكن ولدى الوهلة الأولى يُخيّل إليك التفرد في النوايا والنوايا المخلصة في التزام الطريق الصحيح في معالجة الكتابة ، بحيث تبدو هذه الصفحات المتواضعة المعتمدة على تفكير قديم يبلغ عدة سنوات ، تستنير بنور آخر غير النور المترف ، ولعلّ الملاّح البسيط الذي يتحدث عن السلاسل والصفقات التجارية جعلني أنسى الأدغال والرحّالة وقد أضفى عليّ إحساساً ممتعاً كوني أطّلع على شيء حقيقي دون أدنى شك.

إن وجود كتاب كهذا أمر رائع حقاً ، إنما هناك شيء آخر يثير الدهشة بشكل قوي ، أعني الملاحظات المكتوبة على هامش كل صفحة والتي تعتمد بكل وضوح على النص ، و لم أستطع أن أصدِّق عيني ، لقد كانت مشفرة ، نعم كانت تبدو كالشيفرة ، تصوّر رجلاً يحمل بصعوبة كتاباً ينطوي على وصف كهذا ، إلى مكان مجهول ، يدوسه ، ثم يدوّن الملحوظات فيه ، وفوق ذلك : بالشيفرة ! يا له من لغز مدهش !

لم أنتبه في الواقع إلاّ قليلاً إلى ضجيج صاحب ، وعندما رفعت بصري عن الكتاب لاحظت كومة الحطب قد اختفت من مكانها – بينما كان المدير بالتعاون مع سائر المهاجرين ، يناديني بأعلى صوته من جانب ضفة النهر ، فوضعت الكتاب في جيبي فوراً ، وإني لأؤكد بأن الانقطاع الفوري عن القراءة لهو أشبه بمن يحاول انتزاعي من مرفأ صداقة متينة وقديمة .

بدأت بجعل المحرك الضعيف يدور، وبدأ المركب يتجه إلى الأمام فقال المدير (وهو ينظر إلى الخلف بطريقة يشوبها الحقد وسوء النية إلى المكان الذي ابتعدنا عنه وهو يتمتم بنبرة غامضة) :

– لا بد أن يكون هذا التاجر التعيس ، الد خيل المتطفل – لا بد أن يكون إنكليزياً ، سوف يواجه متاعب جمة ولن ينجو منها إلاّ إذا التزم الحذر الشديد .

فقلت بنبرة واضحة :

– لا أحد في مأمن من مشاكل هذه الدنيا.

تضاعفت سرعة التيار المائي، وبدا المركب في آخر إعيائه وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، في حين اندفع دولاب المحرك يتخبط بضعف وتكاسل ، لقد كنت خائفاً جداً حين كنت أتوقع حدوث ضربة مفاجئة للمركب الذي بات هزيلاً وفي وضع سيئ ، فأضحى الأمر كمن يلحظ الومضات الأخيرة لحياة كائن ما ، ولكنه ما زال يجتاز مياه النهر زحفاً ، ولقد كنت أقوم أحياناً باختيار شجرة موجودة في مكان ما أمامي وذلك لقياس مدى تقدمنا في اتجاه " كورتز " ، ولكني فقدت الأثر قبل أن أنطلق بمحاذاته ، فإذا ما بقي الإنسان يسهر طويلاً لمراقبة شيء ما ، فذاك أمر يتجاوز حدود صبره ككائن بشري . ولما أظهر المدير إذعاناً لطيفاً أصابني التهيج والقلق وغضبت وبدأت أتساءل فيما لو كنت سأتحدث مع كورتز بصراحة أم ألتزم الصمت ، بدا لي في الواقع أن حالي سيكون سخيفاً في كل الأحوال ، فماذا يهم إذا كان المرء يعلم شيئاً ما أو يجهله ؟ ماذا يهم إن كان مديراً أم غيره ؟ فقد يراود هذا البريق المرء في داخله أحياناً ، ولكن جوهر هذه القضية يكمن عميقاً تحت السطح ، إلى ما وراء إدراكه الشخصي ويتعدى طاقتي في التطفل والتدخل فيما لا يعنيني .

تبين لنا في مساء اليوم التالي بأننا أصبحنا على بعد ثمانية أميال عن مقر كورت ، أردت أن نندفع ولكنّ المدير بدا رزيناً وأخبرنا بأن الملاّحة في هذا الموقع على جانب كبير من الخطورة بحيث يفضل التريث قليلاً والانتظار حتى طلوع صباح اليوم التالي، والأهم من ذلك أشار بأنه – ومن باب الحذر– يجب التقدم في وضح النهار وليس عند ا لغسق أو تحت جنح الظلام ، لأن ذلك الأمر في غاية من الحساسية ، فثمانية أميال تعني بأننا نقضي ثلاث ساعات في المركب ونحن نجتاز مياه النهر، وقد لاحظت أثناء ذلك بعض تموجات خفيفة مثيرة ممزوجة بالشك عند الطرف الأعلى من اللسان المنبسط ، ومع ذلك كنت مترعجاً لمثل هذا التأخير ، مع أنه انزعاج غير منطقي لأننا

انتظرنا في الواقع عدة شهور ، وبما أننا نملك الكمية الوافية من الحطب وكلمة تحمل تحذيراً ، توقفت فجأة في وسط النهر ، حيث كان اللسان المنبسط ضيقاً مستقيماً ذا جانبين مرتفعين كخط السكة الحديدية .

لقد بدا الغسق واضحاً قبل غروب الشمس بوقت طويل ، في حين انساب التيار المائي بنعومة وسرعة ليجثم على ضفتي النهر كالأخرس، وقد قامت الأشجار الحية بجلدها بالسوط معاً وتلك الحيوانات الزاحفة ، في حين بدا كل دغل حياً نامياً تحت الأشجار الكبيرة قد تحوّل إلى حجر حتى تحول إلى غصين أكثر هزالاً ونحولاً إلى ورقة شجر أكثر خفة وشفافية ، ولكنها لم تكن نائمة وبدت في وضع غير طبيعي ، أشبه بحالة من النشوة ، حتى الصوت نفسه أصبح أقل صخباً ويمكن سماعه ، تنظر إلى تلك الأشياء بذهول تام ولن يساورك أدنى شك بأنك كقد أصبت بالطرش ، وما إن يهبط الليل حتى تصبح أعمى .

بدأت – في حوالي الساعة الثالثة صباحاً – بعض الأسماك الكبيرة تقفز، وكانت رشرشة المياه المرفقة بحركاتها قد جعلتني أجفل تماماً كطلقة نار من فوهة بندقية ، وعندما بزغت الشمس ارتسمت غامضة بيضاء في السماء لتبدو دافئة جداً ومبتلة وأكثر عتمة من الليل،وبقيت ثابتة في مكانها فلم تبرح مكانها لتبقى ثابتة منتصبة حولك أشبه بشيء صلب ، وفي الثامنة أو التاسعة صباحاً تنقشع تماماً كما يُفتح مصراع النافذة ، فتظهر أمامنا لمحة خاطفة لرؤوس لا تُحصى من أشجار الغابة العملاقة التي بدت على شكل كتل كثيفة متشابكة مع هذه الكرة الصغيرة الملتهبة لهذه الشمس المعلقة فوقها،وهي جامدة بشكل كامل، ويعود المصراع الأبيض ليغلق مرة أخرى بنعومة كما أنه يتزلق طي أخاديد شحمية .

أمرت باستعمال السلاسل التي بدأنا باستعمالها لكي ندفعها مرة أخرى وذلك قبل أن يُوقف المركب ويكف عن إصدار قعقعة مكبوته : صرخة ! صرخة حادة جداً!

أشبه بصرخة الأسى اللانهائي لتحلق ببطء في الفضاء المعتم ، إلاّ أن ثمة توقفاً وتـذمراً صاخباً قد حصل ، حيث انقلب على شكل حالات من التأخر المتوحش وقد أصم الآذان كصرخة مريعة غير متوقعة جعلت شعري ينتصب رعباً تحت قبعتي، ولا أعلم ما مدى تأثيرها على الآخرين ، ولقد خُيّل إليّ كأنها السديم نفسه ، فقد أرسل صـرخة مدوية بشكل فجائي لتنطلق دفعة واحدة، أشبه بجلبة لا يمكن وصفها من كل الجهات، وهكذا تولدت جلبة جنائزية هائجة ومضطربة، وما إن وصلت ذروتها حتى تحوّلت إلى صراخ منفرد لينقطع فوراً،وقد جعلتنا جامدين مندهشين متخذين وضعيات غير سوية، وبدأنا نصغوا فزعين بعد ذلك إلى ذاك الصمت المرعب والمطبق ، فقال أحد المهاجرين الواقف بجواري متلعثماً :

– أيها الرب الطيب ما معنى ؟

لقد نطق بهذه الكلمات رجل قصير القامة سمين ذو شعر رأس رملي اللون ، وشعر أحمر على جانبي وجهه ، منتعلاً جزمته يرتدي (بيجاما) قرنفلية اللون أدخل كل طـرف منها في جواربه .

بقي شخصان آخران يقفان جامدين، وقد فغر كل منهما فمه لشدة الصدمة لدقيقـة بكاملها ، ثم انطلقا مسرعين نحو المقصورة الصغيرة وخرجا يوزعان نظرات مرتعشـة مذعورة في حين يحمل كل منهما سلاحه " Winchester " وكل ما يمكن مشاهدته ذلك المركب الذي نحن على متنه، وقد بدت خطوطه القائمة المشوشة مائلة إلى نقطة الذوبان، محاط بقطاع جانبي من المياه ربما بلغ عرضه قدمين ، وهذا كل شيء كان ، أما بقية الكون فلا وجود له ما دام بعيداً عن العيون والآذان ، لا مكان له أبداً، فقـد رحل واختفى وانجرف برشاقة وقوة دون أن يترك وراءه أي أثر لهمسة أو خيال.

تقدمت وأمرتهم بجذب السلاسل لتكون جاهزة فوراً وذلك للإقلاع بالمركب إذا استدعت الحاجة ، همس بأذني صوت مشوش تلونه الرهبة :

- هل سيهاجموننا ؟

فتمتم آخر :

- سوف يُسفك دمنا حتماً في هذا الجو الضبابي .

بدت الوجوه ترتعش بسبب التوتر العصبي الحاد وأخذت الأيدي ترتجف قليلاً ،ونسيت العيون أن ترف، وقد بدا – بالواقع – الأمر مثيراً جداً وخاصة وأنت تنظر إلى هذا التناقض في تعابير الوجوه ، أعني تناقض تعابير وجوه الرجال البيض والرجال السود الذين يؤلفون طاقم بحارتنا ، فهم في الواقع غرباء مثلنا – بالنسبة لهذا النهر – مع أن منازلهم تبعد فقط ٨٠٠ ميلاً عنا، وبالفعل كان الرجال البيض أكثر إزعاجاً واضطراباً، وعلاوة على ذلك بدا أثر الصدمة أكثر وضوحاً على معالم وجوه الرجال البيض نتيجة هذا الشجار الوحشي ، في حين اتسمت تصرفات الآخرين بالرشاقة والعفوية واتسمت وجوههم بالهدوء والاتزان ، حتى ذلك الملاّح وأولئك الملاّحان اللذان كانا يبتسمان ابتسامة عريضة أثناء سحب السلاسل ، ولقد استخدم العديد من عبارات متبادلة مقتضبة على شكل تمتمة من أجل إرضائهم ، أمّا رئيس القبيلة فهو رجل في مقتبل العمر ذو صدر أسود عريض ، يرتدي ثياباً ذات أهداب ، ذات لون أزرق غامق وله أنفان بغيضان جداً ، وقد حرص على أن يُسّرح شعره ببراعة ملحوظة على هيئة جدايل مزينة ، اقترب ووقف بالقرب مني فقلت :

- آه !

فصرخ بنبرة جازمة :

- أقبض عليهم .

قال ذلك وقد جحظت عيناه المحتقنتان بالدم بلمحة بصر وبأسنانه الحادة :

- أقبض عليهم وقدّمهم لنا .

فسألته مستغرباً :

- لكم ؟ ولماذا ؟ ولأي غرض ؟

فأجاب باقتضاب على نحوٍ خالٍ من اللياقة :

- كي نأكلهم .

قال ذلك وقد أسند مرفقه على السياج وهو يتفرس في الضباب متخذاً وضعية كلها اعتزاز، منطوية على التأمل العميق، وقد انتابني — بلا شك — شعور من الرعب والدهشة مما يعني أنه يتضور جوعاً والجماعة التي ترافقه ؛ فالجوع قد ازداد ضراوة طيلة ذلك الشهر المنصرم، وقد التزموا بالعمل هنا على المركب لستة أشهر (لا أظن أنّ أياً منهم يملك فكرة واضحة تتعلق بالزمن كما امتلكناه نحن ، منذ عصور لا تُحصى ولازالوا ينتمون إلى الصور البدائية ، وهم لا يملكون تجربة بالوراثة كي تفيدهم بحقيقتهم الراهنة) ولقد تم الاتفاق وبالتأكيد ، استناداً إلى كتابة على قطع من الورق وفقاً لقانون هزلي ، لم يطرحه أي كان على نفسه — كيفية عيشهم، فقد جلبوا معهم بعض لحم فرس البحر المتعفن ، ومثل هذا اللحم لا يدوم طويلاً ، مع أن المهاجرين ألقوا بكمية كبيرة من هذا اللحم الفاسد في عرض البحر وسط ذلك الضجيج المريع الذي لا يُوصف ، ومع أنها ستبدو بطريقة ذات اعتبار ولكن من الجائز القول بأنها قضية شرعية تتعلق بموضوع الدفاع عن النفس ، فلا يستطيع المرء أن يشتم رائحة لحم فرس البحر الميت عند يقظته وأثناء نومه ولدى تناول طعامه، ويتوجب عليه في الوقت نفسه الاحتفاظ بطريقته المشكوك فيها بما يتعلق بوجوده ، وعلاوة على ذلك فقد استلم كل واحد منهم ثلاث قطع من السلك النحاسي الأصفر في كل أسبوع . وقد بلغ طول كل سلك تسعة إنشات، وغاية ذلك تأمين شراء مؤونهم من القرى المجاورة لشاطئ النهر ، وبوسعك أن تتصور حقيقة هذا الوضع إن لم يكن وجود لمثل هذه القرى أو لو كان سكانها عدوانيين أو لو كان المدير الذي يرغب بتزويدنا بعلب الطعام المحفوظ بالإضافة إلى لحم الماعز لا يسمح للمركب بالتوقف لسبب غامض جداً ، وقد

يخطر ببالهم ابتلاع السلك النحاسي نفسه أوصنع عقد من هـذا السـلك لاصـطياد الأسماك ، أما أنا شخصياً فكنت أتساءل فيما لو كان يفيدهم راتب مبالغ فيه على هذا النحو، ولا بد من الاعتراف بأن الشركة كانت تدفع الرواتب بشكل متواصل دون أي تأخير، وهي شركة محترمة وكبيرة فعلاً ، وهكذا لا يبقى سوى شيء واحـد صـالح ليقتات به ، رغم أن مظهره لا يُوحي بأنه قابل للأكل، ولقد وقع بصري على طعام ما في حوزهم ، وهو عبارة عن بعض الكتل غير المنتظمة من العجين شبه المطبوخ مـن نبات الخزامى ، وقد بدا لونه وسخاً وكان محفوظاً بأوراق الشجر، وكانوا يبتلعون من حين لآخر قطعة منه، ولمّا كانت اللقمة صغيرة جداً ، بدا لي أن هذا الطعام مصـنوع للتأمل فيه لا لالتهامه وما زلت أتساءل :

– لماذا لم ينقضّوا علينا عندما استبد بهم الجوع، فقد كان عددهم ثلاثين بينما لم نتجاوز الخمسة، وكانت أجسامهم ضخمة قوية لا يبالون بعواقب الأمور ، يتسـمون بالشجاعة والقوة البدنية رغم أن جلدهم لم يعد مصقولاً وعضلاقم لم تعد صلبة ، وقد لاحظت شيئاً ذا علاقة بتلك الأسرار البشرية التي تعرقل الإمكانية، وقد أخذت دورها الآن ، نظرت إليهم باهتمام بالغ و لم أفعل ذلك لأهم لم يأكلوا لحمي ، إذ كان مـن المفروض أهم قد فعلوا ذلك منذ زمن طويل، وقد بدا لي المهاجرون فاسدين وكنـت أرجو – نعم ، كنت أرجو أن لا أشبههم بأي شكل من الأشكال .

ماذا عساي أن أقول ؟ أأعني أني غير قابل للشهية ؟

لقد تملّكني هذا الشعور من الغرور طيلة أيامي حينذاك، ربما لأني كنت مصاباً بالحمّى قليلاً أو بلمسة ما من أشياء أخرى ، فأخذت أتأمل بجذاف المـؤخرة أو الشـخص العابث قبل وقوع الهجوم الضاري في الوقت المناسب .

نعم ، كنت أنظر إلى كل هذه الأشياء كما لو أني أنظر إلى كائن بشري بما فيه من نبضات وحوافز وإمكانيات وحالات ضعف، لاسيما عندما تكون عرضة لاختبار الحاجة الجدية التي لا تلين .

ثمة رادعٌ ! أي رادعٍ هذا ؟ أهو ضرب من الريبة ؟ القرف ، الصبر ، الخوف أو أي نوع من الشرف البدائي ؟ فما من خوف قادر على مقاومة الجوع وما من صبر قادر على إرهاقه ، وببساطة لا يوجد قرف حيث يوجد الجوع ، أما بالنسبة للريبة و المعتقدات وما نسميه بالمبادئ ما هي إلاّ عصافة[1] في مهب الريح ، ألا تعرف القسوة الفاحشة للجماعة المعطلة وتنكيلها المقتضب وأفكارها السوداء ووحشيتها المشؤومة المتسمة بالاكتئاب ؟

حسن ، أنا أعرف ذلك ، فهي تستهلك من الرجل كل قواه الفطرية لمقاومة الجوع . وكما ينبغي،وبالواقع فإنه من الأسهل مواجهة الفجيعة والإهانة وفقدان الروح وهو أقل صعوبة من المجاعة التي طال بها الزمن ، ومع أن هذا شيء مؤسف ولكنه الحقيقة ، وليس لهؤلاء الأشخاص أي سبب قوي لأي نوع من الريبة .

رادعٌ ! كنت أتمنى لو كان للضبع رادع وهو يتجول متسللاً طالباً غنيمة من الجثث المنتشرة في ساحة المعركة ، إنما هناك الواقع الحسي الذي يواجهني ، وهو الواقع الذي يبهر البصر ، فيرى المرء نفسه أشبه برغوة تطفو فوق أعماق البحر ، أشبه بتمويجة على لغز لا يدرك جوهره ، أشبه بسر مبهم جداً – فعندما تخطر ببالي مثل هذه الأشياء – تغدو أكبر من ملحوظة مثيرة غير قابلة للتفسير ، ملحوظة من الأسى اليائس في هذا الدعاء المتوحش الذي قضينا عليه عند ضفة النهر فيما وراء البياض المتواري خلف الضباب .

---

[1] قشر الحنطة المفصول عنها بالدرس .

كان مهاجران يتشاجران بهمس مضطرد حول ضفة النهر ، الضفة اليسرى ،لا ، لا ، أهذا ممكن ؟ الضفة اليمنى .... اليمنى .... بالتأكيد . تعالى صوت المـــدير وراء ظهري ليقول : الأمر في غاية من الخطورة .

ثم تابع :سأكون في غاية من الأسى والشقاء إذا حدث أي شيء للسيد كـــورتز قبل الوصول إلى هناك .

نظرت إليه و لم يساورني أدنى شك بصدق نواياه ، فهو من الرجال الذين يميلـــون إلى التمسك بالمظاهر ، وذلك هو رادعه ، ولكن عندما انطلق يتمتم بشيء ما يتعلـــق برحيلي فوراً فلم أحاول حتى ازعاج نفسي بالإجابة على سؤاله ، فإني أعلم وهو أيضاً يعلم بأن الأمر مستحيل .

سوف نخرج من الأعماق السحيقة وسنصل الفضاء حتماً، ومـــع أنـــه لم يكـــن بمقدورنا التحدث عن المكان الذي نقصده فعلاً – صعوداً أو نزولاً نحو النهر أو عـــبره – إلاّ أننا نجد أنفسنا في مواجهة ضفة ما ، فحينئذٍ يصعب علينا التمييز بينهما، و لم أقم بالفعل بأية حركة و لم أبالِ بأي تحطم أو نكبة ، ولن يكون بمقدورك أن تتصور مكاناً أكثر مأساة من المكان الذي غرقت فيه السفينة ، وما من فرق إن غرقت الآن أم مـــن قبل ،فنحن على ثقة بالموت غرقاً وبسرعة ، بطريقة ما،ثم قال بعد التزام صمت طويل:

– إني أسمح لك بالقيام بجميع المجازفات الممكنة .

أجبته باقتضاب : أرفض القيام بأية مجازفة .

لقد كان يتوقع جواباً كهذا ، مع أن نبرتي أذهلته فقال بأدب بائن :

– لا بأس ، إني أستسلم لقرارك ، فأنت القبطان.

أدرت كتفي له علامة الموافقة والتأييد واندفعت أحدّق في الضباب ، هل سيدوم الأمر طويلاً ؟ لقد كان ذلك أكثر يأساً ، فالاقتراب من كورتز– الـــذي يكـــد ويتعب في عمله الشاق للحصول على العاج في منطقة قـــذرة مرعبـــة مكتظـــة

بالأدغال ، – عملية محفوفة بالمخاطر العديدة ، تماماً كما لو كان الأمــر يتعلــق بأميرة مسحورة ترقد في قصر أسطوري ، ثم سألني المدير بنبرة واثقة : أتعتقد أنهم سيهاجموننا ؟

فقلت : لا أعتقد بأنهم سيهاجموننا لأسباب عديدة واضحة وجلية ، ولعلّ الضــباب الكثيف هو أحد هذه الأسباب، وإذا ما ابتعدوا عن الضفة مستخدمين القوارب الطويلة الخفيفة فسوف يتوهون حتماً، ونحن إذا ما تحركنا سنصاب بالإرباك والضياع،ومازلت أعتقد بأن الأدغال عند الضفتين على حد سواء لا يمكن اختراقهما بأي شــكل مــن الأشكال ، علماً بأنها تنطوي في داخلها الموحش على عيون بشرية ، حــتىّ أن تلــك العيون التي بداخلها وهي التي رأتنا حتماً وكذلك الشجيرات المتشابكة عند النهر كثيفة فعلاً ، ولكن يمكن اختراق الأشجار الصغيرة النامية تحت الأشجار الكبيرة من الخلف يمكن اختراقها بوضوح ، غير أنني لم أشاهد أي قارب طويل خفيف عنــد اللســان المنبسط خلال المدة الصغيرة التي رُفعت خلال المرساة ، ولكن الذي جعل فكرة الهجوم غير واردة بالنسبة إليّ طبيعة ذلك الضجيج . ذلك الصراخ الذي كناقد سمعناه، وهم لا يملكون بالواقع طبعاً بغيضاً كي يتوقعوا هجوماً قريباً مفاجئاً، ومع أنهم قساة متوحشون إلا أنهم أوحوا لي بانطباع من الحزن والأسى، وعندما شاهدوا المركب إنتابهم شــعور طاغٍ من الحزن الجامح غير المحدد كما بينت سابقاً ، فالخطر الحقيقي ناتج عن إمكانية فقدان العاطفة الإنسانية في القريب العاجل ، إلاّ أنه يتخذ في أغلب الأحيــان شــكل اللامبالاة .

– أتمنى لو شاهدت المهاجرين كيف كانوا يحملقون ! فقد كانوا غــير ميّــالين للابتسامة الغامضة أو الساحرة ، وكانوا غير ميّالين أيضاً حتى إلى الشــتم والتشــنيع بالقول ، ولكن خيّل إليّ بأنهم كانوا يعتقدون بأني فقدت عقلي من فــرط الخــوف، فانطلقت أكلمهم حينئذٍ بنبرة توبيخية ، وما من داعٍ للاضطراب يا أولادي الأعزاء !

فيتوجب علينا الحظر ... أليس كذلك ؟ حسن ، إنني أراقب الضباب علّني أستطيع رفع المرساة، وإني أراقب ذلك كمراقبة القطة للفأر تماماً . ولكن أعيننا لم تعد تجدي نفعاً ، كما لو أننا بتنا مدفونين في قاع يبلغ عمقه عدة أميال ضمن كومة من القطن الخام ،ولقد شعرت بنفس هذا الإحساس، إذ بدا الجو خائفاً موحياً بالإنقباض، وعلاوة على ذلك، فقد كان يوحي بالتطرف والمبالغة وكان حقيقياً تماماً ، وكل ما عددناه هجوماً بعد ذلك ، كان بالواقع محاولة للرفض والرد بخطأ ، وكان الفعل أبعد من أن يكون عدوانياً و لم يكن حتى دفاعياً ، فقد وقع الفعل أصلاً تحت تأثير اليأس المؤدي إلى التهور ، أما الجوهر فكان دفاعياً بحتاً .

قلت : لقد بدأت تطور نفسها منذ انقشاع الضباب لمدة ساعتين، وكانت البداية عند موقع يبعد حوالي ميلاً ونصف ميل عن مقر السيد كورتز ، فبدأنا نتخبط ونتعثر وسقطنا فجأة قرب المنعطف ، وفي هذه اللحظة بالذات وقع بصري على جزيرة صغيرة، مجرد رابية معشوشبة، يكثر فيها اخضرار برّاق في عرض النهر ، فكان هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن تمييزه، ولكن ما إن اقتربنا من اللسان المنبسط حتى تبين لي بأن ما رأيته سابقاً ما هو إلاّ رأس ركام رملي ضخم أو سلسلة من البقع القليلة العمق، وقد امتدت نحو عرض البحر ، بدت ألوانها باهتة تميل نحو التلاشي مغمورة بالأمواج ، وبإمكانك مشاهدة كل هذا قائماً تحت المياه كما لو أنك تشاهد العمود الفقري للإنسان يجتاز وسط ظهره تحت الجلد ، وبدا لي الآن التوجه نحو اليمين أو نحو اليسار، فلم أكن ملماً بطبيعة القناة ، وبدت لي – بالتأكيد – جميع المنحدرات النهرية متشابهة وكذلك العمق ، ولكن قيل لي بأن المقر موجود عند الجهة الغربية ، فسلكت الممر الغربي .

لم نكن لندخل ذلك المكان حتى أدركت بأن النهر أضيق مما كنت أتوقّع ، فقد امتدت مساحة طويلة من المياه الضحلة عند الجانب الأيسر ، وأمّا عند الجانب الأيمن

فقد ظهر منحدر شاهق بدا مكسواً بعدد كبير من الشجيرات الكثيفة المتشابكة ، وبدت الأشجار فوق هذا الدغل منتصبة وفقاً لسلسة من مجموعات متعددة وبدت الأعضاء متدلية بكثافة فوق مجرى النهر ، ويمكن من مسافة لأخرى مشاهدة جذعاً كبيراً من شجرة ما وقد امتد بصلابة فوق النهر ، وكان الوقت بعد الظهر ، فبدا وجه الغابة مظلماً وقد سقطت على المياه قطعة رحبة من طيفها ، واصلنا طريقنا تحت هذا الطيف على متن المركب ببطء شديد مما جعله ينحرف نحو مكان قريب من الشاطئ، وقد بدت المياه أكثر عمقاً قرب المنحدر النهري ، وفقاً للمعلومات التي حصلت عليها.

كان في هذا الوقت ، ثمة صديق جائع يتحلى بالصبر وطول الأناة يهتم بسير الغور تحتي ، وكان هذا المركب بالذات يشبه الصندل المزخرف ، إذكان يوجد على متنه مسكتان صغيرتان مصنوعتان من الخشب بأبواب ونوافذ . أما المرجل البخاري فكان على حافة مؤخرة السفينة، في حين تقع وحدة الآلات عند الجهة الخلفية ، وفوق كل هذه الأشياء يمتد سقف خفيف الوزن قائم على دعائم ، في حين نبصر مدخنة تخترق هذا السقف ، وفي الجهة المقابلة للمدخنة تقوم حجرة صغيرة تم بناؤها من ألواح خشبية خفيفة الوزن، وهي حجرة موجه الدفة، وتحتوي على أريكة ومقعدين خفيفين يُطويان، بالإضافة إلى طاولة صغيرة ودولاب الحركة ولها باب واسع عند الجهة الأمامية ودرفة واسعة عند كل جانب حيث تبقى النوافذ مفتوحة باستمرار ، وكنت أقضي جُلّ وقتي جاثماً هناك عند طرف ذلك السقف الآخر ، و أنام إذا ما حلّ المساء وأحاول أن أنام على الأريكة ، وكان ثمة رجل رياضي قوي البنية زنجي ينتمي إلى قبيلة من الساحل ، تم تدريبه على يد القبطان السابق ، ويقوم بدور موجه الدفة، وكان يضع في كل أذن قرطاً نحاسياً ويرتدي وشاحاً أزرق اللون،ويكسو جسمه من الخصر وحتى الرسغين ، ويعتقد بقرارة نفسه بأنه الكائن الأعظم شأناً في هذا الكون مع أنني لم أرَ في حياتي قط رجلاً أشد منه حماقة وعصبية ،فلا يستقر له قرار ويمشي فخوراً عندما تكون

قريباً منه ولكن إذا ما بقي لوحده يصبح فريسة لخوف مزرٍ، وكان بمقدوره أن يوجه دفة هذا المركب الكسيح بعد دقيقة واحدة .

كنت أنظر إلى عمود السير فازداد قلقاً مع كل محاولة يقوم بها حين يقل العمق تدريجياً في ذلك النهر ، وذلك ما كان يشير إليه ذلك العمود ، ورأيت فجأة الفلاّح الذي يقوم بهذه العملية قد توقف عن عمله وارتمى فوق ظهر السفينة دون أن يجهد نفسه ويشد عمود السير، وبقي ممسكاً به لينجرف في الماء وشاهدت في الوقت نفسه الوقّاد [1] وقد جلس فجأة قبالة الموقد وغمر رأسه ، فأصبت بذهول شديد،وكان عليّ بعد ذلك مراقبة النهر بسرعة ، فقد ظهر بروز حاد عند مجرى النهر حيث كانت مجموعة من العصي ، العصي الصغيرة تتطاير حول المركب ، وكانت كلها غليظة تئن وتزمجر لدى انطلاقها بالسرعة الخاطفة أمام أنفي ، وكانت تتساقط في النهر بجواري لترتطم بقوة بحجرة موجه الدفة من خلفي ،وقد ساد — طوال هذا الوقت — النهر والشاطئ والغابات جو من السكينة والهدوء التام حيث كنت قادراً على سمع هذا (الترشاش) الثقيل لدولاب الدفع وزحزحة هذه الأشياء ، وهكذا اجتزنا النتوء الخطر بشكل عشوائي .

إطلاق علينا ! وحق جوف !

لقد تعرضنا لهجوم، فاتجهت مسرعاً نحو الجهة المقابلة لليابسة كي أغلق الدرفة ، ثم وقع بصري على موجه الدفة فإذا به يضع يديه على شعاع الدولاب ويرفع ركبتيه عالياً ويضرب بأخمص قدميه ، يعض فمه ويمضغ بقوة كرسن حصان .

اللعنة عليك ! لقد كنا نترنح بشدة على مسافة ١٠ أقدام من ضفة النهر ، وبينما كنت منشغلاً بإغلاق الدرفة وقع بصري على وجهٍ بين أوراق الشجر في مستوى مكاني تماماً،فكان ينظر إليّ بشراسة مخيفة وبشكل مفاجئ ، أشبه بحجاب قد أزيح عن بصري

[1] الرجل الذي يقوم بمهمة الوقود .

– فرأيت في قلب الغابة صدوراً عارية ، أذرعاً وسيقاناً وعيوناً تحدق بي وتلمع ، فقد كانت الأجمة تطيح بهؤلاء الزنوج المتوحشين بهذه الأطراف من أجساد تتحرك ، تتوهج بلونها البرونزي ، وثمة أغصان صغيرة تنحني وتطلق حفيفاً لتنطلق الأسهم منها ، عندئذ صرخت موجهاً كلامي إلى موجه الدفة :

– هيّا أدر المحرك فوراً !

رفع رأسه وظل جامداً من شدة الخوف، ولكنّ عينيه بقيتا تتحركان، وبدأ فمه يزبد ويرغي، وكان يرفع قدميه ويخفضهما ببطء، فصرخت غضباً :

– ابقَ هادئاً !

لم يجد قولي هذا صدىً، فهو أشبه بكلام موجه إلى شجرة أطلب منها ألا تنحني إزاء العاصفة ، فقفزت خارج الحجرة بسرعة خاطفة، حيث كان يتعالى عند الأسفل صوت جر أقدام على سطح حديدي وصراخ متشابك ، فانبعث صوت مدوياً :

– أيمكنك العودة إلى الوراء ؟

وقع بصري على منظر على شكل V يرتسم على وجه الماء ، ماذا ؟

إنه نتوء آخر ، فدوّى إطلاق رصاص متبادل تحت قدمي فجأة، إذ أشهر المهاجرون بنادقهم الwinchester محاولين أن يخرجوا من هذه الأجمة النحيقة بسهولة ، فعمّ الجو دخان كثيف ، ولم يعُد بوسعي رؤية النتوء في النهر أو الأمواج ، فوقفت عند المدخل أحدّق في الغابة خائفاً، وكانت الأسهم تصلنا بأعداد كبيرة ولربما كانت مسمومة ولكنها تبدو عاجزة حتى عن قتل قطة ، وبدأت الغابة تعوي ، فقد أطلق قاطعو الأخشاب صرخة الحرب وانطلقت رصاصة خلفي ، فنظرت فوق كتفي ثم التفت إلى حجرة موجه الدفة فكانت مليئة بالضجيج ، تمتلئ بالدخان من كل جانب ، فاندفعت بسرعة خاطفة نحو باب المحرك ، أما ذلك الزنجي الأحمق فقد تخلّى عن كل شيء ليترك الدرفة مفتوحة ويدع ذلك لِ Martini - Henry فوقف مشدوهاً في

العراء ،يحدّق في الغابة،فصرخت به أن يرجع،بينما كنت مهتماً بتوجيه المركب ، ولقد بدا النتوء الخطر قريباً جداً عبر هذا الدخان المتلبد، وما من مجال لتضييع الوقت ، وبعد جهد استطعت توجيهه نحو الضفة تماماً داخل هذا المنحدر حيث أدركت بأن المياه عميقة .

بدأنا نتقدم ببطء وطول الشجيرات المتدلية ، وكانت تلك الأغصان الصغيرة تدور في الجو بسرعة خاطفة وأوراق الشجر تتطاير ، وبعد وقت قصير توقف تبادل إطلاق النار، وما إن صدرت بارقة حتى ألقيت برأسي فوراً إلى الوراء ، فبدا وكأن الرصاصة قد اخترقت حجرة موجه الدفة، ثم وقع بصري على هذا الملاّح الأحمق، فرأيته يحرك سلاحه الفارغ من الذخيرة ، صارخاً مستغيثاً على الشاطئ وشاهدت أشكالاً بشرية غير واضحة المعالم ، تركض ، تقفز ، بميزة ناقصة سريعة التلاشي ، وثمة شيء ضخم ظهر في الفضاء، مواجهة الغطاء المتحرك ، فانطلقت البندقية فوق المركب ليظهر رجل بصورة فجائية فرمقني من فوق كتفه بنظرة مألوفة وعميقة ، وسقط عند قدمي ، في حين ارتطم جانب رأسه بالدولاب مرتين ، بينما طقطقت عصيّ طويلة واصطدمت (بالإسكملة) ، وقد بدا وكأنه – بعد هذا الالتواء – قد فقد توازنه عند الشاطئ بعد الجهد الذي بذله ، وسرعان ما تلاشى الدخان القليل فكنا واضحين تماماً ، وعندما نظرت إلى الأمام، أدركت بأن الحصول على الحربة ممكن إذا ما استطعنا اجتياز مئة ياردة أو قريباً منها ، بعيداً عن الضفة ، ولكن – أحسست قدماي بالحرارة الشديدة والرطوبة مما جعلني أنظر إليهما بقلق ودهشة، ثم تدحرج الرجل على ظهره وحدّق بي مباشرة، في حين كانت يداه تمسكان بتلك العصا بقوة ، وإنها جزء من رقم قد أصابه إصابة مميتة تحت الرئتين خلال الفتحات ، وانزلق النصل بعيداً عن الأنظار بعد أن أحدث جرحاً مخيفاً بالفعل ، فغمر الدم حذائي ،وإنّ بركة من الدم امتدت بسكون وهي تتوهج بلونها الأحمر القاني تحت الدولاب ، وكانت عيناه تشعان بشكل مذهل ،

ثم انطلق تبادل الرصاص ثانية ، فنظر إليّ بقلق واضطراب قابضاً بقوة على الرمح وكأنه شيء نفيس ، ومن خلال زفيره بدا وكأنه خائف مني ، فحاولت أن أنتزعه من يـــده وألقي به بعيداً ، ولقد بذلت جهداً كبيراً لأحرر عيني من نظرته الشاخصـــة تلـــك ، فاتجهت نحو دفة المركب بسرعة، وفجأة توقفت جلبة الغضب وخوض الحرب ، وبعد ذلك ، انبعث من أعماق الغابات عويل من الخوف الجنائزي ، ليجد الأمل الأخير في هذا الكون ، فتعالى هرج في الغابة وتوقفت زخات الأسهم وانطلقت بشكل متقطـــع وحاد بعض طلقات الرصاص ، ثم ساد الصمت حيث ترامت إلى مسمعي بوضـــوح الضربة الضعيفة البطيئة لدولاب التسيير، وبعد جهد كبير استطعت تحريك ذراع الدفة، وفي هذه اللحظة بالذات ، ظهر عند المدخل أحد المهاجرين مرتدياً (البيجاما) القرنفلية اللون ، منفعلاً جداً ومضطرباً كل الاضطراب ،فقال بلهجة رسمية :

– أرسلني المدير ...

قطع كلامه بصورة فجائية ليصيح :

– يا لرحمة الرب ...!

قال ذلك وهو يحدّق بالرجل الجريح .

كلانا من الجنس الأبيض ، انحنينا فوقه وقد غمرتنا نظرته الشاخصة البرّاقة المنطوية على التساؤل والدهشة ، فأيقنت بأنه يود أن يسألنا بلغة غامضة ، ولكنه فارق الحياة قبل أن يتفوه بكلمة واحدة، دون أن يحرك أطرافه ، دون أن تختلج عضلة من عضلاته، كان ذلك فقط عند اللحظة الأخيرة، كما لو أنها استجابة لرمز ما لا يمكن مشاهدته ، كما لو أنها همسة لا يمكن سماعها ، لقد تجهّم بقوة وقد أضفى مثل هذا التجهم علـــى قناع الموت حلكة لا يمكن تصورها، لتنطوي على تعبير فيه تنديـــد مـــثير للحـــزن والاكتئاب، وإن بريق نظرته الخاطفة الاستفهامية قد تلاشى بسرعة طي جمود زجاجي فارغ، فسألت مندوب الشركة بحماس :

- هل تستطيع توجيه دفة المركب ؟

بدا غير واثق من نفسه ، عندئذٍ قبضت ذراعه بقوة ، فأدرك فوراً ، أنني أطلب منه تنفيذ ذلك رضي أم أبى، وقد كنت في الواقع فريسة لقلق مريض لدرجة لم أستطع معها تبديل حذائي وجواربي ، فتمتم الشخص الواقف بجواري، وقد بدا متأثراً كل التأثير :

- لقد مات !

فقلت وأنا أشد شريط الحذاء بعنف كالمجنون :

- هذا أمر لا شك فيه ، وأظن السيد كورتز قد مات في هذا الوقت أيضاً .

سيطر مثل هذا الاعتقاد ، على أفكارنا للحظة وقد انتابني شعور من خيبة الأمل أشد مرارة ، فاكتشفت بأنني أناضل بشراهة من أجل شيء لا قيمة له ، لا يستند إلى أي جوهر ، ولم أستطع أن أجده إلاّ مقرفاً إذا ما كانت مهمة السفر الشاقة هذه تقتصر فقط على التحدث مع السيد كورتز ، التحدث،فقذفت بفردة حذائي من فوق المركب، وأصبحت أدرك الآن تمام الإدراك بأن الشيء الذي أرنو إليه الآن هو فقط التحدث مع كورتز، وتوصلت إلى اكتشاف غريب ، لم أتخيّله وهو يعمل ، بل كنت أتخيّله وهو يتحدث بإطناب ونقاش ، ولم أقل لنفسي :

- لن أقابله الآن أبداً ، أو لن أصافحه الآن أبداً ، ولن أسمعه الآن أبداً ، وإن قدّم لي الرجل نفسه كصوت فهذا لا يعني بأنني لم أقم علاقة عمل معه ، أفلم أُعلم أنا من قبل وبكل اللهجات والدهشة بأنه جمّع وقايض واكتسب بالاحتيال أو سرقة المزيد من العاج أكثر بكثير من سائر مندوبي الشركة مجتمعين ؟

ولكن لم تكن تلك النقطة الأساسية ، ولكن النقطة الأساسية كانت في كونه مخلوقاً موهوباً ، وتلك الموهبة التي كانت تبرز بتفوق بين سائر مواهبه والتي تتسم بحس الحضور الحقيقي في مهارته بالتحدث، وقد كانت تتمثل كلماته بتكرارها موهبة التغيير

والدهشة والانهيار ، والأكثر جاذبية ، والأكثر احتقاراً والنهر الذي سينبض نوراً ، أو هذا التدفق المخادع المنبعث من ظلام لا يمكن اختراقه .

قذفت عالياً الفردة الثانية من حذائي في ذلك النهر الشيطاني ، فاعتقدت وبحق جوف أن كل شيء قد انتهى، وقد تأخرنا كثيراً حيث توارى وتلاشت الهبة بواسطة الرمح أو السهم أو الهراوة، ولن أسمع ذلك الشاب يتحدث أبداً ، وقد اتخذ حزني طابع التطرف العاطفي المذهل تماماً كالأسى الذي شاهدته من خلال عواء هؤلاء المتوحشين في الغابة ، و لم أستطع إلاّ أن أشعر باليأس والوحدة ، فقد تراءى لي بأنني قد أخطأت قدري في الحياة .

– لماذا تتأوه بهذه الطريقة الحيوانية ، أما من شخص ما ؟ إنه لأمر سخيف ؟ حسن، أمر سخيف . يا للرب ! أيجب على الإنسان أن – هيّا أعطني بعض التبغ ....

ساد المكان سكون عميق ، ثم اشتعل عود ثقاب ليظهر وجه مارلو الهزيل الذابل الأجوف مع ثنايا متهدلة وجفون سابلة ، لقد كان صاحب هذه الملامح منهمكاً في تأمل عميق ، وبينما كان ينبعث الدخان بقوة من غليونه بدا لي وكأنه يتراجع وينبعث من الليل وفقاً لشعلة صغيرة ومن ثمّ تلاشى عود الثقاب .

صرخ :

– يا للتفاهة ! إنه لأسوأ شيء تحاول أن تتحدث عنه ، ها أنتم جميعاً توثقون المركب القديم المعطل المزود بمرساتين ، فجزّار من جهة وشرطي من جهة أخرى – فشهية رائعة وحرارة طبيعية – أتسمعونني ؟ – عادية من نهاية السنة إلى نهايتها وتقولون :

– إنه شيء سخيف ، والسخيف يمكن أن ينفجر ، شيء سخيف !

فيا أولادي الأعزاء ماذا تتوقعون من رجل قد انهارت أعصابه، وقد ألقى بحذائه الجديد من فوق المركب ، وإنني أفكر الآن في هذا الأمر، ولن أذرف الدموع ،وعلى

كل حال فإني فخور بجلدي ، وقد تسللت إلى نفسي فكرة أنه لن يحصل لي شـــرف الاستماع إلى كورتز الموهوب، وقد كنت بالتأكيد مخطئاً ، فقـــد كـــان المهـــاجر في انتظاري شخصياً .

آه ، نعم ، لقد سمعت بما فيه الكفاية، وكنت محقاً تماماً، لقد كان صوتاً، بل أكثر من صوت ، ولقد كان أضعف صوت سمعته ، ثمة أصوات أخرى ، لقد كانت جميعها أكثر من أصوات، فقد أخذت ذكرى ذلك الزمن تتلكأ من حولي بحيث لا يدركها أي إحساس ، فهو أشبه بذبذبة متلاشية لهلوسة ضخمة ، لا تنطوي على أي معنى، ثمـــة أصوات ... أصوات،حتى الفتاة نفسها نفسها ... الآن هدئ الصوت لفترة طويلة ، ليعود فيبدأ فجأة :

- جعلت الشبح يقدم هداياه بأكذوبة ، فتاة !

ماذا ؟ أذكرت اسم فتاة ؟ آه ! لا علاقة لها بهذا الأمر تماماً ، إنهن — أعني النســـاء — خارج هذا المجال ، يجب أن يكن خارج هذا المجال ، فعلينا أن نساعد النساء كي يبقين في عالمهن الجميل الخاص ، خشية أن يصبح وضعنا نحن الرجال أكثر سوءاً ، يجب أن تكون (هي) خارج هذا المجال . لقد سمعتَ جثة السيد كورتز البارزة من القبر تقول: خطيبتي ! ولسوف تلاحظ فوراً بأنها لم تكن على صلة به، ناهيك عن عظمة الوجاهة المتغطرسة للسيد كورتز ، ويزعمون بأن الشعر يستمر في النمو ، ولكن ... هذا ، إنه نموذج ... لقد كان أصلعاً تماماً . وقد نما القحط على رأسه بلطف ، وفوق ذلك إنه أشبه بكرة — كرة من العاج ، لامسته ولاطفته ، ولكن وللأسف فقد أصابه الذبول ، وقد أخذَتْه وأحبتْه واحتضنته ، ودخلت في شرايينه وقد استهلك لحمه وختم روحه من أجلها وفقاً لاحتفالات دينية لا يمكن تصديقها . فقد كان الحبيب المدلل والمفضـــل ، العاج ؟

لابد من التفكير في هذا الأمر ، أكوام من العاج ؟، أكداس منتظمة ، فالكوخ القديم المصنوع من الطين لا بد أن ينفجر بسبب كميات العاج الوفيرة الموجودة في داخله ، ولا بد أن تعتقد بأهم لم يتخلوا عن ناب واحد فوق أو تحت الأرض في جميع أنحاء البلاد . قال المدير منتقداً :

– معظمها بقية مستحثات تحجّرت في التراب .

نطق بهذه الكلمات بفظاظة واستصغار ، ولم تكن بقية الحيوانات متحجرة أكثر مني، ولكنهم يقولون إنها بقايا متحجرة عندما يتم استخراجها بالحفر، ويبدو أن الزنوج يدفنون الأنياب أحياناً ، ولكنهم لم يكونوا قادرين على دفن هذه الرزمة الثمينة على عمق كافٍ لينقذوا السيد كورتز الموهوب من مصيره ، لقد ملأنا المركب بالبضاعة، وكان علينا أن نضع عدة أكوام على سطحه ، فهذا ما يستطيع أن يراه ويستمتع به حين يراه لأنه بقي على مستوىً من التقدير المفضّل الملازم له حتى الرمق الأخير،وكان يمكنك أن تسمعه يقول : عاجي !

آه ، نعم ، لقد سمعته يقول :

– خطيبتي ، عاجي ، محطتي ، نهري ، ملكي ، ...وكل شيء كان يخصه .

لقد جعلني أقبض نَفَسي متوقعاً سماع انفجاره المتوحش في ضحكة ممزوجة بسخرية بحيث تجعلها تثبّت النجوم في مكانها .

كل شيء يعود إليه ولكن كم عدد قوى الظلام التي تستدعيه إليها ؟ إنه ذلك الإنعكاس الذي يجعلك تزحف في كل مكان ، لقد كان ذلك مستحيلاً ، ولم يكن من المناسب لأيٍ كان لأن يتخيّل أي شيء، وقد اتّخذ مقعداً عالياً بين أبالسة الأرض– وأعني ذلك بالحرف ، ولن يكون بوسعك أن تفهم – ولكن أنىّ يكن ذلك وأنت تقف على أرضية صلبة ، محاط بجيران يتسمون باللطف ، مستعدون أن يسعدوك أو يوقعوا بك ، يخطون بحذرٍ بين الجزار والشرطي، وثمة شعور بالرعب من انتشار الفضيحة

والمشانق وبيوت المجانين ، فكيف يمكنك تصور وجود منطقة ما تنتمي إلى العصور الوسطى حيث كان الإنسان طليقاً لا يعترض سبيله شيء ، فكيف ستتعامل معه في جو من الوحشة التامة دون أي شرطي – عن طريق الصمت – الصمت المطلق ؟ حيث لا يوجد صوت تحذيري لجار يمكن سماعه يهمس حول الرأي العام ، وإنّ أشياء كهذه قليلة الأهمية تولد الفرق الكبير ، فإذا ما رحلوا ، عليك الاعتماد على قوتك الفطرية ، استناداً إلى قدرتك في الإخلاص ، وقد تكون بالطبع مجنوناً إذا ما سلكت هذا الدرب الخاطئ ، ولابد أن تكون غبياً حتى لو علمت بأنك معرض لهجوم من قبل قوى الظلام ، وما من إنسان يقبل بالفعل عقد صفقة بيع وشراء لأجل روحه مع الشيطان ، فالجنون هو ما يمكن أن يتطور إلى جنون أكبر، ويبقى الشيطان هو نفسه الشيطان ، ولكن لم يعد بإمكاني أن أميّز بين كل هذه الأبجديات ،ومن الجائز أن تكون مخلوقاً أصم وأعمى وفقاً لأي شيء فيما عدا ما يمكن أن تشاهد من مناظر وأصوات سماوية، وهكذا تكون الأرض بالنسبة لك مكاناً ثابتاً، وقد يكون ذلك سبباً لغبائك أو نجاحك ، مع أنني لا أحب أن أتظاهر بمثل هذا القول ، إلاّ أن معظم الناس لا ينتمون لهذه الفئة أو تلك ، فالأرض بالنسبة لنا هي المكان الذي نعِش عليه حيث يتوجب علينا احتمال المناظر والأصوات بروائحها أيضاً وحق جوف ! كأن تستنشق رائحة الفرس البحري الميت دون أن تُصاب بالتلوث ، وألا تبصر هناك تلك المناظر ! فهناك تستعيد عافيتك ، والثقة بمهارتك – في حفر حُفر لا يتاجَر بها لدفن التوافه ، فطاقة الإخلاص ليس من أجلك بل من أجل أمر سخيف ، يحطم ما تعمل من أجله ، وهذا أمر صعب للغاية .

إني لا أحاول الاعتذار أو حتى شرح الموقف ، إني فقط أعد حساباتي من أجل السيد كورتز ، من أجل شبح السيد كورتز ، فهذا الشبح المطلّع على الأسرار القادم من اللا مكان إنما يشرفني بثقة قبل أن يتلاشى ، ولأنه قادر على مخاطبتي باللغة

الإنكليزية،فقد تلّقى كورتز الأصلي تربيته جزئياً في إنكلترا، وقد كان سلوكه صحيحاً وبطريق سوي، فأمه نصف إنكليزية ووالده نصف فرنسي ، حتى أن أوروبا بكاملها ساهمت في صنع كورتز ، ولقد علمت لاحقاً بأن الجمعية العالمية لإلغاء العادات المتوحشة،قد كلفته في وضع تقرير يتعلق في توجيهات المستقبل،وقد كتبت هذا التقرير فعلاً ورأيته بأم عيني وقرأته ، فكان أسلوبه جيداً يتسم بالبلاغة ولكنه انفعالي الطابع على ما أعتقد،وقد استطاع أن يحدد الوقت الكافي لتدوين تقرير مكون من سبعة عشرة صفحة ويمكن القول بأنه كتب تقريره المطوّل هذا قبل أن يُصاب بالانهيار العصبي، إذ اضطر للإشراف على رقصات منتصف الليل التي تنتهي باحتفالات طقوسية لا يمكن وصفها بالكلام ، والتي كانت تقدم تضرعاً له – وفقاً لبعض المعلومات التي حصلت عليها من إفادات بعض الأشخاص في أوقات متفاوتة – أتستطيع أن تفهم ؟ إلى السيد كورتز نفسه ، ولكنها كانت قطعة أدبية رائعة ، غير أن الفقرة التمهيدية أذهلتني بالفعل ، كونها تنطوي على كلمات تنذر بالشؤم ، فقد بدأ التقرير :

" نحن البيض وانطلاقاً من نقطة النمو والتطور التي وصلنا إليها يتحتم علينا الظهور أمامهم ككائنات خارقة للطبيعة، وأن نتقرّب إليهم عبر قدرة تتسم بقدرة إله وهكذا نتابع :

– وبمجرد تدريب إرادتنا ، نستطيع ممارسة القدرة لصنع الخير بشكل غير محدد من الناحية العلمية و هلمّ جرّ ! ومن هذه النقطة ارتفع واصطحبني معه ، وكان الكلام الإجمالي رائعاً رغم صعوبة الاحتفاظ به في الذاكرة ، ولقد أوحى إليّ بفكرة الاتساع الدخيل الذي يحكمه حسن النية المعتبر ، لقد جعلتني – تلك القدرة المطلقة للبلاغة – وما من دلائل عملية لقطع تيار العبارات السحري باستثناء بعض الملاحظات المذكورة في ذيل الصفحات الأخيرة ، ولقد عبث بها بالفعل مؤخراً بيد قلقة، وقد يمكن اعتبار ذلك عرض إيضاحيٌّ لمنهج ما ، وكان ذلك سهلاً جداً ، ولعلّه يتوهج في داخلك لا

سيما عند نهاية ذلك الدعاء المثير لأي شعور غيري ، شعور مضيء ومريــع ، أشــبه بومضة برق في سماء صافية .

- يجب القضاء على جميع البهائم !

يمكن القول بأن ما يلفت النظر يبدو وأنه نسي كل ما يتعلق بتلــك المعطيــات القيّمة، لأنه ولدى استعادة وعيه الكامل في الأيام القابلة ، طلب مني الاعتناء بكرّاسي (حسب زعمه) ، وهذا يعني أن هذا الكرّاس سيشكل تأثيراً ملموساً على مســتقبله ، فلديّ المعلومات الكاملة حول هذه الأشياء ، وعلاوة على ذلك فإنه من واجبي الاعتناء بمذكراته ، لقد فعلت الكثير من أجلها ، بحيث يحق لي طرحها كي تلوذ إلى الرائحــة الأبدية بين جميع التصحيحات ، وبلهجة رمزية بين جميع القطط الحضارية الميتة ، ولكن وكما ترى فإنني لم أعد قادراً على الاختيار ، لا يريد أن يكون منسياً ، ومهما تكــن شخصيته فإنه لم يكن رجلاً عادياً ، لقد كان يتمتع بقدرة إفتتان أو تخويف للنفــوس البدائية غير المتطورة برقعته الساحرة الأشد خطورة ، إكراماً له وتحت شرفه ، ويستطيع أن يملئ أيضاً النفوس الصغيرة للمهاجرين بحيثيات أمل مريرة ، فقد كان لديه صــديق واحد على الأقل ، وفيٌّ مخلص ، وقد غزا روحاً وحيدة في العالم ، و لم تكن بدائية وغير متسمة بالفائدة ، لا لم أستطع أن أنساه رغم أنني غير مستعد للتأكيد بأن هذا الشخص قد استحق الحياة التي فقدناها من أجل الوصول إليه ، حتى عندما كانت جثته ما تزال ملقاة في حجرته ، وربما كان هذا الشعور مشوباً بالندم بخصوص رجل متوحش غريب لا تساوي قيمته أكثر من حبة رمل في الصحراء .

حسن ، ألا ترى بأنه قام بشيء ما ؟ لقد قام بالتجديف لعدة أشهر ، فقد كــان مساعداً لي يخلفني ، وأداة نافعة ، فقد كان ما بيننا نوعاً من الشراكة، لقد كان يجدّف من أجلي وكان عليّ أن أعتني به ، فكنت قلقاً على حالات عجزه ، وهكذا فقد ينشأ بيننا ربط لطيف ، وما كنت أدري بذلك حتى انتهت العلاقة بيننا فجأة ، وما تلــك

النظرة المتسمة بعمق الود التي رمقني بها عندما أصيب بجرم خطير مازالــت حيــة في ذاكرتي حتى هذا اليوم ، وإنها لأشبه بادعاء بقرابة متباعدة قد تم إثباتها في لحظة ثابتة.

يا له من أحمق مسكين ! لو ترك الدفة وحدها ! ولكن لم يكن لديه أي رادعٍ ، ما من رادعٍ تماماً ككورتز، كشجرة ، تتمايل بسبب الريح ، وما إن انتعلت الخف الجاف حتى سحبته بعد أن انتزعت الرمح من جانبه وأعترقت – وللحقيقــة – بــأنني قــد أغمضت عيني لدى القيام بهذه العملية الجراحية ، ولقد ثبّت كصبيه معاً فوق العتبــة الصغيرة، ولقد اتكأ بكتفيه على صدري ، فعانقته من الخلف بيأس بائن :

– آه ، كم كان ثقيلاً ! ثقيلاً ! أثقل من أي إنسان على وجه الأرض .

لقد استطعت أن أتخيّل ، وبدون إثارة المزيد من الضجيج دفعه بقوة مــن فــوق المركب ، فانتزعه التيار تماماً كما لو أنه حزمة من العشب ، ورأيت الجثة تتــدحرج مرتين قبل أن تتوارى عن نظري وللأبد .

تكاثر المهاجرون وتجمّعوا مع المدير على ظهر المركب حول حجرة موجه الدفة، وكانوا يثرثرون مع بعضهم أشبه بقطيع طيور من الغربان الهائجة، وحصل في الوقــت نفسه تمتمة سيئة حين إيقاظ شفقتي المنعدمة ، فماذا يقصدون من الاحتفاظ بتلك الجثة المعلّقة هناك، وهذا ما لا أستطيع أن أعرف سببه، ولربما كانوا يريدون أن يعطّروهــا، ولكني سمعت أيضاً تمتمة تنذر بالسوء على ظهر المركب من الجهة السُفلى ، وقد عــدّ أصدقائي الحطّابون مثل هذا التصرف إهانة واضحة، ولهذا سبب ما يبرره، في حين أنني أعترف بأن هذا السبب غير مقبول .

آه ، تماماً ! فقد رأيت أنه إذا كان لا بد من أكل صديقي موجه الدفة – عنــدما كان على قيد الحياة – من الدرجة الثانية ، ولكنه سيغدو الآن – وهو ميت – مــن الدرجة الأولى المغرية – ومن الجائز أن يسبب بعض المشاكل ، وزد على ذلك بــأنني

أصبحت قلقاً عندما توليت دولاب التسيير ، أمّا ذلك الرجل الذي يرتدي / البيجاما/ قرنفلية اللون، فقد تبين بأنه بليد الذهن عندما يعمل .

لقد أنهيت المراسم الجنائزية البسيطة مباشرة ، وانطلقنا بنصف السرعة ملتـــزمين الخط النهري إلى الوسط مستمعاً إلى الحديث الذي كان يدور حولي ، لقد يئسوا فقط من كورتز وهجروا المحطة ، كان كورتز ميتاً والمحطة قد أحرقت ، وهكذا ... وكان المهاجر أحمر الشعر يقنع نفسه بأن كورتز المسكين قد انتقم لنفسه حتماً .

قال المتسول الصغير ، الشديد الحذر ، المتعطش للدماء وهو يرقص :

- قل لي ! يجب أن ترتكب مجزرة مجيدة في الغابة الكثيفة ، إيه ؟ ما رأيك ؟

لقد أوشك أن يُغمى عليه عندما شاهد الرجل الجريح ، فلم أســتطع أن ألتـــزم الصمت طويلاً فقلت له :

- ما هذه الكمية المُبالغ بها من الدخان !

لاحظت بأن طلقات الرصاص جميعها لم تصب أهدافها، فقد كانت تنطلق عالياً ولا يمكنك إصابة أي شيء إلاّ إذا أحكمت التسديد واضعاً البندقية على كتفك ، لكن هؤلاء الأشخاص يطلقون النار عبر السنام[1] والأعين مغلقة ، ولقد تم الانسحاب بكل سهولة بسبب زعيق صافرة المركب خوفاً ورعباً، وأجزم لك بأنهم قد نسوا كـــورتز، فاندفعوا يصرخون في وجهي معبرين عن احتجاجهم الساخط .

وقف المدير قرب دولاب التسيير، وأخذ يتمتم :

- يجب الابتعاد عن هذا النهر قبل هبوط الليل مهما كانت الأحوال .

لقد شاهدت من بعيد أرضاً خالية من الشجر عند حافة النهر وبدت من خطوطها الإجمالية أشبه ببناية، فسألته :

- ما هذا ؟

---

[1] السنام : زاوية تنشأ عن التقاء سطحي سقف منحدرين .

صفّق بيديه مندهشاً وقال :

– المحطة !

تقدمت بالمركب رويداً رويداً دون تعديل نصف سرعته، شاهدت من خلال المنظار منحدر هضبة مع بعض الأشجار المتحررة كلياً من الأشجار الصغيرة النامية تحت الأشجار الكبيرة، وثمة بناية ممتدة طولاً متهدمة على قمة الهضبة، وقد بدت شبه مدفونة بين الأعشاب البالية ، والحفر الواسعة عند السقف الدقيق الرأس والذي بدا منفرجاً أسود اللون ، بدا من بعيد ، فكانت الخلفية مكوّنة من أدغال وغابات، إلاّ أنه يوجد قرب المترل نصف دزينة من الأخشاب المنصوبة النحيفة تلتزم صفاً واحداً،والمزينة قليلاً، وعند الطرف الأعلى لكل قطعة تم تثبيت كرات مجوّفة ، أمّا الأسوار فقد اختفى أثرها رغم أنها كانت موجودة هنا فعلاً .

وبالطبع فقد كانت الغابة تحيط بكل هذه الأشياء،وكان مجرى النهر نظيفاً تماماً ، وشاهدت عند ضفة النهر رجلاً أبيضاً أشبه بدولاب عربة يعتمر قبعة ، يومئ على الدوام بذراعه ، وعندما قمت بفحص الغابة من أسفلها وعاليها كنت واثقاً على الدوام بأنني لاحظت وجود بعض التحركات : أشكال بشرية تندفع هنا وهناك ، فواصلت مسيري بالمركب حذراً، ثم أوقفت المحرك لينحدر تلقائياً إلى أسفل ،فاندفع الرجل الواقف على الشاطئ ليصرخ بأعلى صوته، يحثنا على التوجه إلى اليابسة ، فصرخ المدير:

– لقد هوجمنا .

فولول الرجل الآخر :

– أعرف ذلك ، أعرف ، لا بأس ، هيّا ، تقدموا ، لا بأس فأنا مسرور .

لقد ذكّرني مظهره بشيء ما قد رأيته سابقاً ، شيء مضحك قد رأيته في مكان ما، فحدّثت نفسي عندما كنت متجهاً نحو الشاطئ :

فحدّثت نفسي عندما كنت متجهاً نحو الشاطئ :

- يشبه ماذا هذا الشخص ؟

ولكن سرعان ما وجدت تفسيراً لذلك ، فقد كان أشبه بمهرج ، فثيابه مصنوعة من الخرق البالية ، خرقٍ زرقاء وحمراء وصفراء ، وهناك رقع على الظهر ورقع على الجنبين ،رقع على المرفقين والركبتين، وثمة حاشية ملونة حول سترته وهدب قرمزي اللون عند وسط (بنطاله) ، في حين جعلته أشعة الشمس يبدو فرحاً إلى أقصى حد ونظيفاً بشكل رائع ، فقد تم رقع هذه الثياب بشكل جذّاب ، ولقد بدا بدون لحية بوجه صبياني جميل جداً ،أملس الأنف بعينين زرقاوين ، وتتوالى البسمات و التجهم، بعضها إثر بعض على سيماء وجهه — التي تشبه شعاع الشمس وتظلل السهل الذي ينثر ترابه الرياح ، فصرخ ليقول :

- انظر إلى هناك يا كابتن ، كان يوجد نتوء خطير ليلة أمس .

فقلت وأنا أشتم بشكل قذر :

- ماذا ؟ نتوء آخر ؟

أدرت حينئذٍ مركبي الكسيح لأنهي تلك الرحلة الجذّابة ، في حين أدار المهرج الواقف على الضفة أنفه الأفطس وسألني مبتسماً :

- أأنت إنكليزي ؟

صرخت من جهة دولاب الحركة :

- وأنت ؟

تبددت الابتسامات عن وجهه ، ثم هزّ رأسه علامة أسف لخيبة الأمل التي ألّمت بي، وسرعان ما أشرق وجهه ليصبح بنبرة تشجيعية :

- لا بأس .

فسألته : أنحن في الوقت المناسب ؟

أجاب وهو يشير برأسه إلى الهضبة العليا :

- إنه هناك .

قال ذلك وعبس فجأة ليبدو متجهم الوجه أشبه بسماء الخريف ، مكفهراً تارة وصافياً تارة أخرى .

اتجه المدير نحو المترل يرافقه المهاجرون لحمايته متسلحين من قمة الرأس وحتى أخمص القدمين ، صعد ذلك الشخص ظهر المركب ، فقلت له :

- لا أحب هذا ، إن هؤلاء الزنوج — السكان الأصليين موجودون في الأجمة .

فأجابني مطمئناً :

- لا داعي لكل هذا الخوف ، إن كل شيء على ما يرام واستطرد :

- إهم أناس بسطاء ، فأنا مسرور لقدومك ، سأكرس كل وقتي لأبعدهم عنك .

فصرخت :

- ولكنك قلت بأن الأمر على خير ما يرام .

فقال : إهم لا يضمرون أي شر .

ولّما كنت محدّقاً به أجاب مصححاً :

- ليس تماماً ، ثم أضاف منشرحاً وبدماثة :

- أقسم إن حجرة الدفة بحاجة إلى تنظيف .

نصحني بعد فترة وجيزة بالاحتفاظ بكمية من البخار داخل المرجل وباستخدام صافرة المركب لدى وقوع أي حادث، وأردف مكرراً :

- إن زعيقاً واحداً حاداً سوف يفيدك أكثر من جميع البنادق التي في حوزتك ، إهم أناس بسطاء .

صمت طويلاً ، ثم أخذ يتكلم تلميحاً ويضحك من صميم قلبه، فقلت :

- ألا تتحدث مع السيد كورتز ؟

فصاح مستغرباً :

– لن يكون بوسعك التحدث مع ذلك الرجل ، ما عليك إلاّ أن تستمع إليـــه، ثم أضاف:

– لكن الآن ...

لوّح بذراعه ثم عبّر من خلال طرفة عينيه عن حالة من القنوط إلى الحد الأقصـــى ، فقفز فجأة من مكانه ووضع يديه على صدره ثم اندفع يتكلم بسرعة وبشكل مشوّش : الأخ البحار – شرف - ..... – سرور ... أقدم نفسي ... روسي ... ابن كـــبير الكهنة – حكومة تاميوف ؟

ماذا ؟ التبغ ! تبغ إنكليزي ... التبغ الإنكليزي الرائع ! إنه أخويٌ الآن ! أتدخن ! أين البحار الذي لا يدخن ؟ سكّن الغليون جأشه بشكل تدريجي ثم اندفع يحـــدثني عـــن هروبه من المدرسة، وإنه اجتاز البحار بسفينة روسية وهرب ثانية ليخـــدم في بعـــض السفن الإنكليزية، ثم تصافح مع كبير الكهنة، وقال مؤكداً :

– عندما يكون المرء شاباً يجب أن يطلّع على أشياء وأن يكتسب خبرة وأفكـــاراً، وأن يوسع آفاق مداركه ، فقاطعته :

– هنا ؟

فأجابني بحدة الشباب ونبرة المصائب :

– أما من فكرة لديك ؟ لقد التقيت السيد كورتز .

التزمت الصمت حينئذٍ ، فيبدو أنه استطاع أن يُقنع مؤسسة تجارية ألمانية من الساحل بتزويده بمحلات تجارية وبضائع، وبدأ يعمل بصفاء،أشبه بصفاء الطفل الرضيع ، وأخذ يتجوّل حول ذلك النهر لوحده لمدة عامين مبتعداً عن كل شخص، وعن كل شيء، ثم قال :

- إني لست صغيراً كما أبدو ، عمري خمسة وعشرون عاماً ، ثم تابع يتحدث بمتعة فائقة :

- لقد طلب مني Van shuyten الذهاب إلى الجحيم، ولكني لم أتخلّ عنه،وأخذت أتحدث وأتحدث إلى أن راوده شعور من الخوف أن ينتهي بي الأمر لأضجر بحديث الساق الخلفية لكلبه المفضل ، فأعطاني بعض الأشياء الرخيصة مع القليل من البنادق، وأضاف بالحرف الواحد :

- آمل ألا أرى وجهك ثانية ، يا له من رجل ألماني عجوز ، طيب القلب Van shuyten ، لقد أرسلت إليه كمية من العاج العام الماضي ، لذلك لن يصفني باللص عندما أعود إلى هناك . وأرجو أن يستلم تلك الهدية ، أمّا فيما خلا ذلك فلا يهمني البتة ، لديّ بعض قطع الحطب المكدّسة من أجلك ، لقد كان ذلك المسكن منزلي القديم ، هل شاهدته ؟

أعطيته كتاب Towson فخطر بباله أن يقبلني لكنه تمالك نفسه ، فقال لي وهو ينظر إلى الكتاب بفرح كبير :

- إنه الكتاب الوحيد الذي تركته هناك، واعتقدت بأني فقدته . ثم استطرد :

- ثمة أحداث طارئة قد تقع للمرء عندما يرحل لوحده كما تعلم، فأحياناً تقع القوارب الطويلة رأساً على عقب، وأحياناً تجد نفسك مضطراً للرحيل بأقصى سرعة ممكنة عندما يستشيط الناس غضباً . ثم أخذ يُقلّب الصفحات، فسألته :

- لقد دوّنت ملاحظات بالروسية ؟

هزّ رأسه موافقاً ، فقلت :

- أعتقد أنه كان مكتوباً بالشيفرة .

ابتسم ثم أصبح جدياً وقال :

- لديّ الكثير من المشاكل كي أبعد أولئك الناس .

فسألته :

- هل أرادوا أن يقتلوك ؟

صرخ وهو يراقب نفسه :

- لماذا هاجمونا ؟

طاردته بنظراتي، فتردد، ثم قال خجلاً :

- إنهم لا يريدونه أن يذهب .

فقلت مستطلعاً :

- ألا يريدون حقاً ؟

هز رأسه هزة مكتظة بالفحوص والحكمة ، فصرخ :

- أخبرك بأن هذا الرجل قد أوسع مداركي .

فتح ذراعيه على مجال سعتهما ، وحملق بي بعينيه الزرقاوين الصغيرتين اللتين كانتا دائرتين تماماً .

نظرت إليه ، تائهاً من شدة الدهشة ، وقف أمامي متنافر الألوان،كما لو أنه هرب سراً من وجه فرقة التمثيل الإيمائي ، وقد بدا أسطورياً مفعماً بالحماسة، وبدا وجوده بعيد الاحتمال مبهماً ومربكاً ، وقد بدا مشكلة غير قابلة للحل ، إذ لا يمكن تصديق الطريقة التي التزمها في حياته، وكيف استطاع الوصول بعيداً ، وكيف دبّر أموره وصمد في مكانه، ولماذا لم يتوارَ فوراً فقال :

- رحلت بعيداً نوعاً ما ، ثم رحلت أبعد من اللزوم ، وتابعت الرحيل إلى مسافة أكثر بُعداً ، إلى درجة لم أعد معها قادراً على العودة ، غير مهم ، لديّ الوقت الكافي كي أستطيع أن أتدبر أمري ، ويمكنك إبعاد كورتز بسرعة، وبأقصى سرعة .

ولعلّ فتنة الشباب تغطي ثيابه الممزقة المتعددة الألوان : فقر الموقع، وحشته وحزنه الناجم عن حالات التشرد التافهة ، ولعدة أشهر بل ولعدة سنوات ، لم تكن حياته

أكثر قيمة من يوم خاص بالصفقة ، وقد عاش هناك بشهامة وشجاعة وبلا تفكـــير ، غير مبالٍ بمشاعر الآخرين، غير قابل للإتلاف بحكم السنوات القليلة التي أمضاها هناك، وبحكم جرأته الطائشة، وجدت نفسي مشدوداً عبر شيء يشبه الإعجاب ، كالحسد ، الفتنة تحتفظ به سالماً موفوراً،وبالتأكيد فإنه لا يبغي شيئاً من القفر سوى فسحة للتنفس ومتابعة المسيرة ، وإنّ كل ما يحتاجه هو أن يعيش ويتحرك إلى الأمام مع أكبر مجازفـــة ممكنة ومع الحد الأقصى من الحرمان ، وإذا ما سادت روح المغامرة النقيـــة بصـــورة مطلقة ، متهورة وغير عملية، وسادت الكائن البشري فإنها سوف تحكم هذا الشـــاب المبعثر ، وإني لأحسده لامتلاكه هذه الشعلة النقية المتواضعة، ويبدو أني استهلكت كل تفكير للذات كلياً ، إلى درجة أنك تنسى مَنْ يتحدث إليك ، فهو نفسه من عـــايش كل هذه الأحداث ، فلم أحسده بسبب وفائه لكورتز، وهو لم يفكر كثيراً بهذا الأمر ، لقد جاءت إليه هذه الحالة عفوياً وتقبّلها راضياً متلهفاً من باب قسري، وعليّ أن أقول إنها بدت بالنسبة لي الشيء الأكثر خطورة،بشأن أي طريق سلكه لاجتياز مسافات بعيدة.

لقد وصل كلاهما بطريقة لا يمكن تجنبها، أشبه بسفينتين متجاورتين تقفان بالقرب من بعضهما ، تحتكان ببعضهما البعض ، وأظن السيد كورتز بحاجـــة إلى مســـتمع، وعندما صادف ووصلنا الغابة أخذا يتحدثان طوال الليل، ومن الجائز أن كورتز كان قد تحدث لمدة أطول . فقال :

– لقد تحدثنا عن كل شيء .

قال ذلك، وقد كان منتعشاً حين تم هذا الاستنكار، وأضاف :

– لقد نسيت بأن هذا الشيء موجود كالنوم ،ويبدو أن الليل لم يستقر أكثر من ساعة. كل شيء ! كل شيء عن الحب أيضاً .

قلت وبتسلية أكثر :

– آه ، لقد تحدث عن الحب !

فصاح بانفعال بائن :

- إنه ليس الحب الذي تعهده أنت ، لقد تحدث عن الحب بشكل عام وجعلني أبصر أشياءً وأشياء .

رفع ذراعيه عالياً ، حين كنا واقفين على ظهر المركب ، في حين كان رئيس الحطّابين مضطجعاً قربنا، فوجه إليه نظرة قاسية بعينين برّاقتين ، نظرت حولي و لم أدرِ لماذا ، ولكني أؤكد بأنه لم يسبق وأن تراءت لي هذه اليابسة وذلك النهر وتلك الغابة وقبة السماء الملتهبة ، تراءت لي كأشياء فقلت :

- لقد لازمته منذ ذلك الحين كصديق — أليس كذلك ؟ وعلى العكس ، انقطعت العلاقة بينهما فيما يبدو لأسباب مختلفة ، ولقد أخبرني باعتزاز ظاهر بأنه قد اعتنى بكورتز يوم أصابه المرض مرتين (ألمح إلى ذلك كأنه يتحدث عن عميل مجيد ينطوي على مخاطرة) ولكن كورتز فضّل أن يتوغل بمفرده بعيداً في جوف الغابة ، فقال :

- غالباً ما كنت أقصد هذا المقر وكنت مضطراً إلى الانتظار عدة أيام قبل أن يرجع من هناك ، آه ، قد يكون الانتظار أحياناً ذا قيمة .

فسألت : ماذا كان يفعل ؟ أكان يستكشف أم ماذا ؟

فأجابني : آه ، أجل بالطبع ، لقد اكتشف عدداً كبيراً من القرى وبحيرة أيضاً ، فلم يكن يعرف وجهتها الحقيقية ، ولا يجوز التحقيق أكثر بهذا الموضوع ، ومع أنه كان أمراً خطيراً ، إلاّ أن معظم استكشافاته كانت للعاج .

فقلت معترضاً : ولكنه لم يكن يملك بضائع للمقايضة في ذلك الوقت .

فأجاب وهو ينظر بعيداً :

- كان في حوزته الكثير من الخرطوش .

فقلت : كان بصراحة يغير على البلد .

هز رأسه موافقاً : طبعاً لم يكن يفعل ذلك وحده .

قال ذلك و تمتم ببعض الكلمات التي لا علاقة لها بالقرى المحيطة بتلك الجزيرة، فقلت مقترحاً:

ـــ كان كورتز يطلب من القبيلة أن تخضع لأوامره، أليس كذلك؟

بدا مترعجاً وقال إنهم يعبدونه.

بدت نبرته غريبة إلى حد ما حيث اضطررت إلى رمقه بنظرة ثاقبة، وقد كانت طريقته في الحديث عن كورتز غريبة، فهي جزء عميق من عواطفه، لقد ملأ الرجل حياته وأصبح شغله الشاغل يحمله على تغيير عواطفه، فانفجر:

ـــ ماذا؟ إنهم لم يشاهدوا رعباً، لقد ظهر عليهم كالبرق والرعد ـــ كما تعلم

ـــ وهم لم يشاهدوا كهذا من قبل، كهذا لقد كان مخيفاً جداً، وكان بوسعه أن يكون مرعباً، فلا يمكن اعتبار السيد كورتز رجلاً عادياً.

كلا، كلا، كلا،! أقول لك الآن وللإيضاح فقط، لقد أراد أن يطلق عليّ النار ذات يوم ولكني لم أتحامل عليه . فصرخت: يطلقون عليك النار، ولماذا؟

ـــ حسن كنت أملك كمية قليلة من العاج، أعطاني إياها شيخ القرية المجاورة لبيتي.

حسن، لقد أراد أن يأخذ البضاعة مني، دون قبول أي تعليل لعدم إعطائه إياها، وأضاف بأنه مستعد أن يقتلني رمياً بالرصاص إذا لم أعطه العاج وأرحل، واستطرد: بأني قادر على ذلك لأجد متعة في قتلك، وما من قوة في الكون قادرة على منعه خاصة إذا ما شعر بمتعة في القتل.

لقد كان صحيحاً أيضاً، فأعطيته العاج، ولم أبال! ولكنني لم أرحل. لا، لا، لم أستطع أن أتركه ولقد كنت مضطراً لألتزم الحذر طبعاً ريثما تعود الأمور إلى طبيعتها وتعود الصداقة من جديد.

عاوده المرض من جديد في ذلك الوقت، فاضطررت بعد ذلك إلى الابتعاد عن طريقه، ولكني لم اهتم كثيراً بهذا الأمر، وقد كان يقضي جلّ وقته في تلك القرى المحيطة بالبحيرة، وعندما كان يؤم شاطئ النهر كان يزورني أحياناً وفي أحيان أخرى كنت أتصرف بحذر منه، لقد عانى هذا الرجل كثيراً، وكان يكره كل شيء وكان عاجزاً عن الرحيل، وكنت أتحيّن أحياناً بعض الفرص لأرجوه أن يرحل من هنا قبل فوات الأوان، عارضاً أن أعود معه، وافق على اقتراحي، ولكنه لم يرحل،فقد قام برحلة صيد جديدة من أجل العاج، ولقد توارى لعدة أسابيع ناسياً نفسه وهو يعيش بين هؤلاء الناس ــ وقد نسي نفسه فعلاً.

فقلت: إيه، إنه مجنون!

أبدى احتجاجاً غضباً وأضاف بأن السيد كورتز لا يمكن أن يكون مجنوناً، فلو سمعته يتحدث ليوم واحد فقط لما تجرّأت على التلميح بهذا أبداً، تناولت منظاري بينما كنا نتأمل، وكنت أتأمل في الشاطئ، منقباً حدود الغابة من كل جانب وفاحصاً خلفية المترل واضحيت مدركاً لوجود هؤلاء الناس المتوحشين في جوف الأدغال وقد التزم الصمت المطلق والهدوء التام. بدا صامتاً هادئاً جداً كسكون المسكن المتهدم على التلة مما أثار القلق في نفسي لدى سماع حالات من الدهشة واليأس المرير، علاوة على خلجات الكتفين والعبارات المتقطعة والتلميحات التي تنتهي بالتأوهات العميقة، وبدت الغابات –ساكنة أشبه بقناع – ثقيلة أشبه بباب سجن مغلق، وقد بدت وكأنها تنطوي

على معلومات خفية و توقعات تنطوي على التروي، على صمت متباعد يصعب تقريبه، وأخبرني الروسي بأن السيد كورتز قد يصعب تقريبه، وأخبرني الروسي بأن السيد كورتز قد رحل حديثاً إلى ضفة النهر مصطحباً معه كل الرجال المقاتلين من قبيلة البحيرة، وقد كان متغيباً لعدة أشهر ليصبح معبوداً، فأعتقده قد وصل إلى هنا بصورة غير متوقعة متباينة، شن غارة على طريق اجتياز النهر أو اجتياز الجدول، ومن الواضح فإن اشتهاء المزيد من العاج يجعل صاحبه أقل اهتماماً بالتطلعات المادية، إلا أن الأمور قد ساءت فجأة ــ ولكن ماذا عساي أن أقول؟ ــ بالنسبة له. ثم قال الروسي:

ــ كان يترصد الكمين يائساً.

آه، إنه سيء، سيء جداً، أين حصتي؟

وجهت منظاري نحو المسكن الذي لا أثر للحياة فيه،وبوسعك أن ترى السقف المتهدم فقط والجدار الطويل المصنوع من الطين، يلوّح فوق الشعب مع ثلاث نوافذ صغيرة مربعة الشكل باحجام مختلفة، وتبدو أنها ليست بعيدة فكأنها في متناول يدي، فقمت حينئذ بحركة فجائية عندما شاهدت أحد هذه المراكز الباقية ذات السياج المتهدم، ثم وثب فجأة على منظاري، إنك تذكر بأنني أخبرتك بأنني تأثرت كثيراً باطلال هذا المكان وبالأشياء المزخرفة المحيطة به، وإنني أنظر إليها الآن من مسافة قريبة وأول ردة فعل قمت بها أن ألقيت رأسي إلى الوراء كما لو أنني تلقيت صفعة، ثم أخذت أنقل منظاري من مركز إلى مركز بعناية لأدرك غلطتي، فلم تكن العُقَد المدورة تلك أشياء مزخرفة، بل كانت أشياء رمزية معبرة ومثيرة للإرتباك والحيرة، مذهلة ومزعجة ومغذية للفكر، وغذاء للطيور الجارحة إذا ما تكرمت السماء علينا بنظرة، ولكن الرؤوس البشرية المعلقة على القضبان تبدو أكثر رعباً فيما لو تكن وجوهها

متجهة نحو المسكن، وثمة وجه واحد كان منتصباً في مواجهتي و لم أصدم كثيراً ، فلم يكن رد الفعل سوى حركة فجائية إلى الوراء دليلاً على الدهشة، إذ كنت أتوقع أن أشاهد عقدة من الخشب، فإنتقلت بنظري إلى الرأس الأول الذي كان أسود البشرة جافاً متشنجاً وبدا بعينين مغلقتين، وبدا هذا الرأس كأنه ينام على رأس هذا العمود، بشفتين ضامرتين جافتين حين يبرز صف من الأسنان، وقد كان يبتسم بإستمرار لدى رؤية حلم ساحر لا نهاية له، لدى مشاهدة حلم يخفي ذلك النوم الأبدي.

لن أبوح بأي من الأسرار التجارية، وهذا ما قاله المدير بعد ذلك،وأن أساليب السيد كورتز قد دمرت المقاطعة بالفعل ولا رأي لي حول تلك النقطة، ولكني أريد أن أوضح بأن هذه الرؤوس الميتة المعلقة على الأعمدة لا فائدة منها، وقد أبدوا بأن السيد كورتز يفتقر فقط إلى وازع يتعلق بإشباع رغباته الجنسية الجامحة المتنوعة، ولكن هل كان يدرك بأن هذا نقص يعاني منه ؟ إلاّ أنني أعتقد بأن المعرفة قد حلّت بداخله في نهاية الأمر، ولكن الوحشة القفراء قد اكتشفت أمره أولاً، وقد انتقمت منه انتقاماً مخيفاً بسبب الإنهاك الوهمي غريب الأطوار، وأعتقد بأنها همست له بأشياء عن نفسه، كان هو نفسه يجهلها، أشياء لم تخطر له على بال إلى أن إستثار العزلة الكبيرة ليتداول الآراء معها، وقد أثبت الهمس بأن فتنتها السحرية لا تقاوم، فقد تردد صداها عالياً في داخله لأن جوهره فارغ أصلاً، وضعت المنظار جانباً، أما الرأس الذي كان قد اختفى والذي بدا قريباً جداً من بصري، فقد بدا الآن وكأنه ولّى هارباً بصورة فجائية بعيداً عني إلى مسافة يتعذر الوصول إليها.

إن الشخص المعجب بالسيد كورتز هو شخص محطم النفس،وقد قال لي بصوت متسرع وغير واضح:

ــ لم أجرؤ على إذلال تلك الرموز، ولست خائفاً من السكان الأصليين، لن يقوموا بأية حركة قبل تلقي الأوامر من السيد كورتز إذ كانت سطوته استثنائية، فكانت مخيمات هؤلاء الناس تحيط بالمكان، وكان رؤوساء القبائل يأتون كل يوم لمقابلته، وقد يزحفون. فصرخت:

ــ لا أريد أن أعرف أي شيء يتعلق بالإحتفالات التي يقيمونها لدى زيارة السيد كورتز.

ومن الغرابة، فقد انتابني شعور بأن هذه التفاصيل لا بد وأن تكون أكثر فظاعة من مشهد هذه الرؤوس الجافة المعلقة على الأعمدة تحت نوافذ السيد كورتز، وبعد كل ذلك كان مجرد منظر وحشي، مع أنني تصورت منطقة مظلمة مكتظة بالفظائع الماكرة، حيث تعد الوحشية الصافية غير المعقدة ارتياحاً موضوعياً وشيئاً جديراً بالحياة تحت أشعة الشمس، رمقني الشاب بنظرة مدهشة وأظنه لم يكن ليفهم بأن السيد كورتز لم يكن معبوداً بالنسبة لي وقد نسي بأنني لم أسمع أبداً من قبل بهذه الحوادث الرائعة. وماذا كانت؟

أكانت متعلقة بالحب والعدالة والسلوك الحياتي؟ أو لم تكن؟ فإذا ما صدف وزحفوا قبل السيد كورتز فقد كان يزحف أكثر منهم كوحش أكثر بطشاً، أمامهم كلهم، ولّما لم تكن لديّ فكرة عن الأوضاع السائدة هناك قال:

ــ لقد كانت هذه الرؤوس رؤوس المتمردين، صدمته كثيراً عندما ضحكت ــ متمردون ! وماذا سيقول لي بعد ذلك؟ فهل لديه تعريف آخر؟ لا بد أنهم أعداء مجرمون عمال، ولقد كانوا متمردين، وقد بدت لي رؤوس أولئك المتمردين خاشعة جداً وهي معلقة على أعوادها، فصاح تلميذ كورتز الأخير:

ـ إنك تجهل كيف تختبر هذه الحياة إنساناً مثل كورتز. فسألت: لا بأس، وأنت؟

وأردفت: أنا! أنا رجل بسيط ولا أفكار عظيمة لديّ، لا أريد أي شيء من أي كان وكيف يمكن أن تقارني بذلك؟

بدا عليه الانفعال أثناء الحديث وانفجر فجأة ليصرخ:

ـ أنا لا أفهم، لقد بذلت كل ما بوسعي لأبقيه على قيد الحياة، وهذا كافٍ، ولا يد لي بكل ذلك وما من قرارات لديّ، لم تكن توجد قطرة دواء أو طعام خاص بالمرض لعدة أشهر، وقد غدا منبوذاً بشكل مخجل، ورجل كهذا بأفكار كهذه، يا للعار! لم أذق للنوم طعماً طيلة الليالي العشرة الماضية.

لقد فقد صوته نفسه في زحمة سكون المساء، وانزلقت أطياف الغابة الطويلة إلى أسفل التلة،و بينما كنا نتحدث انزلقت إلى ما وراء الكوخ الصغير المتهدم، إلى ما وراء هذا الصف الرمزي من الأعداد الغليظة، لقد جرى كل ذلك في ظلام دامس بينما كنا تحت ضوء الشمس وكان امتداد النهر يحاذي فسحة الغابة التي تتألق بروعة متوهجة، ساكنة صامدة بالإضافة إلى التعرج القاتم الدامس المضلل من فوقه وتحته، ولم يكن يوجد أثر لكائن حي على الشاطىء ، أما الأشجار فكانت جامدة.

ظهرت عند زاوية المترل فجأة جماعة من الرجال، تماماً كما لو أنهم خرجوا من باطن الأرض، مشوا متراصين وكأنهم كتلة واحدة يحملون نقالة مرتخية الصنع بوسطهم، وفوراً ومن صلب فراغ هذا المنظر الطبيعي دوّت صرخة حادة جداً لتخترق الهواء الساكن أشبه بسهم حاد، وقد تدفقت إلى الأرض المقطوعة الشجر المجاورة للغابة ذات الوجه المظلم والمسترسل للتفكير، فيما تدفقت أنهار من الكائنات البشرية بطريقة

سحرية، كائنات بشرية عارية وبأيديها رماح وأقواس وتروس بنظرات متوحشة وحركات همجية، فأخذت الأشجار تهتز وبدأت الأعشاب تترنح لوقت محدد ثم تجمّد كل شيء بحذر وترقب، قال الروسي الواقف بجواري: الآن إذا لم يقل لهم الشيء المطلوب فيكون أمرنا قد انتهى. أما جماعة الرجال التي تحمل النقالة فقد توقفت أيضاً غير بعيدة عن المركب والذي تجمد فجأة كأنه تحول إلى حجر، شاهدت الرجل الذي على النقالة يجلس، إنه بشعر متهدل، رافعاً ذراعه محمولاً على أكتاف الحمّالين فقلت:

ـــ لنتأمل بأن هذا الرجل الذي يستطيع أن يتحدث بشكل جيد عن الحب بشكل عام أن يجد الحجة الخاصة ليصفح عنا للأبد.

أحسست بمرارة خطورة الموقف كما لو أننا تحت رحمة ذلك الشبح الفظيع، إننا نحتاج إلى صفحة، يا لها من حاجة ماسة!

لم أستطع أن أسمع أي صوت، ولكني رأيت عبر منظاري ذراعاً نحيلاً وقد امتد لتوجيه الأوامر،وكان الفك الأسفل يتحرك والعينان تلمعان ضمن هذا الرأس العظمي حيث كان يهتز بخلجات سخيفة مضحكة. كورتز ـــ كورتز والذي يعني بالألمانية قصيراً، أليس كذلك؟ حسن، لقد كان ذلك الاسم صحيحاً كأي شيء آخر في هذه الحياة وكذلك الموت بدا وكأن طوله سبعة أقدام على الأقل، وما إن سقط عنه الغطاء حتى برز جسمه بمظهره التعيس والمروّع، كأنه نسيج من شراع معرض لهبوب الريح، لقد كان بمقدوري أن أشاهد قفص الأضلاع خارج صدره وعظام ذراعه تتأرجح أشبه بصورة موت تم نحتها، وقد نُحتت من عاج قديم وهي تهز يدها علامة الترهيب لهذا الحشد من الكائنات البشرية الجامدة، بحشد من الرجال من صنع البرونز الأسود اللمّاع، شاهدته وهو يفتح فمه على سعته، قد بدا أشبه بوحش غريب غامض مخيف،

لا يُشفى غليله، كما أنه يريد ابتلاع كل الفضاء وكل الأرض وكل الرجال الواقفين أمامه، ترامى إليّ بعد ذلك صوت عميق، إذ كان صاحبه يصرخ ثم يقع فجأة على ظهره، وبعد ذلك ترنحت النقالة بينما كان الحمّالون يتمايلون نحو الأمام، ولاحظت في الوقت نفسه جماعة متوحشة تتوارى عن الأنظار دون أن تقوم بأية حركة انسحاب كما لو أن الغابة التي قذفتهم فجأة إلى الخارج قد جذبتهم إلى جوفها ثانية، تماماً كما حصل عند التقاط النفس عبرتنفس طويل.

حمل بعض المهاجرين السائرين وراء النقالة ذراعيه، وتم إطلاق طلقي رصاص، ثم عيارات من بندقية ثقيلة وبندقية قصيرة كصواعق جوبيتر المسكين، ثم انحنى المدير فوقه وأخذ يتمتم خلال سيره بجوار رأسه، مدده داخل حجرة صغيرة، غرفة صغيرة تستوعب مكاناً لسرير واحد فقط، وإسكملة قعود تتسع لواحد أو اثنين وقمنا بإحضار رسائله المتأخرة ومجموعة من الأغلفة الممزقة ورسائل مفتوحة مبعثرة فوق سريره، فأخذ يدير يده بضعف بين هذه الأوراق، ولقد تأثرت كثيراً بشرارة النار المنبعثة من عينيه، وذلك الوهن المتسم بضبط النفس المرتسم على محياه، ولم يكن ذلك إرهاقاً ناجماً عن مرض ولم يبد يتألم، ولقد بدا هذا الطيف مشبعاً باللذة والهدوء مع أنه كان لفترة وجيزة مفعماً بالعاطفة.

هزّ إحدى الرسائل ثم نظر إليّ مباشرة وقال:

ــ إني مسرور!

وثمة شخص ما، كان قد كتب له عني ويبدو أن الوصية ما زالت قائمة، فقد أذهلتني نبرة صوته القوية، لقد كان رزيناً عميقاً رناناً، مع أن هذا الرجل نفسه غير

قادر على الهمس إلا أنه يملك في ذاته القوة الوافية الشافية، قوة غير طبيعية بلا شك مما يضع حداً إلى نهايتنا مباشرة حيث سنسمع فوراً.

ظهر المدير عند المدخل هادئاً، فخرجت فوراً وأسدلت الستار ورائي، أما بالنسبة للروسي فكان المهاجرون ينظرون إليه باستغراب وهو يحدّق بالشاطئ فتابعت وجهة تحديقه.

إن أشكالاً بشرية سوداء يمكن ملاحظتها تتحرك على بعد معين، تمر سريعاً وخفيفاً بشكل خاطف عند الجهة المقابلة لحافة الغابة الكئيبة، وبجوار النهر كائنات لها بشرة برونزية، وقد اتكأ كل واحد على رمحه الطويل، وقفا تحت أشعة الشمس وقد ارتديا غطاء مرقطاً، وعلى ما يبدو أنهما مقاتلان، وقد كانا أشبه بتمثال في روعته،ومن اليمين إلى اليسار على طول الشاطئ المقابل تحركت قامة امرأة رائعة الجمال.

سارت بخطىً متزنة مرتدية ثياباً مظلمة، ذات أهداب وشراشيب تدوس الأرض بكبرياء مع خشخشة خفيفة متناغمة بالإضافة إلى حليً وجواهر همجية المظهر، كانت ترفع رأسها إلى أعلى، أما شعرها فقد اتخذ شكل الخوذة، وكانت ترتدي كساءً نحاسياً يصل حتى الركبة مع بقعة قرمزية مطبوعة على خدها الأسمر المصغر،وعدد لا يحصى من القلادات المصنوعة من الخرزات الزجاجية تحيط بعنقها أشياء غريبة. تعاويذ وهدايا من السحرة تبدو وكأنها معلقة في ثيابها، تتوهج وترتعش لدى قيامها بأية خطوة،ولديها أشياء زخرفية تعادل من حيث القيمة عدداً كبيراً من أنياب الفيلة، وقد كانت متوحشة ورائعة بعينين رائعتين متوحشتين، ويبدو أن هناك شيئاً غير طبيعي ومهيب في مشيتها وما إن حلت السكينة فوق الأرض الكئيبة حتى بدت المساحات الجدباء المترامية الأطراف، الجسد العملاق لهذه الحياة الخصبة والمبهمة، تبدو وكأنها تنظر إليّ،وقد

استغرقت في تأمل عميق كما أنها تنظر إلى صورتها الشخصية، صورة روحها الضبابية العاشقة.

مشت بمحاذاة المركب ووقفت ساكنة لنواجهها، فهبط طيفها الطويل على حافة المياه، ولقد كان لوجهها سحنة تراجيدية قاسية يلوّنها الحزن المتوحش والعذاب الأبكم ممتزجين بالخوف من نزاع ما، قلقة وقفت تنظر إلينا دون أن تقوم بحركة ما، تماماً كالوحشة الجدباء بمظهر عابس حزين مخيماً على نية لا يمكن اختراقها، مضت دقيقة بكاملها ثم خطت نحونا لتنبعث منها خشخشة رقيقة، أشبه بومضة من معدن أصفر تمايل لملابس مهدبة، توقفت وكأنها صدمت لسبب ما، الشاب الواقف بجواري، في حين تمتم المهاجرون بكلمات مبهمة من وراء ظهري، نظرت إلينا كما لو أن حياتها مرتبطة بنظرتها الخاطفة المتسمة بالولاء والثبات، وفجأة بسطت ذراعيها العاريتين ورفعتهما بصلابة فوق رأسها كما لو أنها تحاول جاهدة أن تلامس أديم السماء وفقاً لرغبة جامحة لا تقاوم، في حين امتدت أطياف سريعة على الأرض لتتزلق فوق مياه النهر، لتضم المركب إلى صدرها بعناق عفوي، يسود بعد ذلك المشهد الجليل صمت رهيب.

قفلت ببطء وقد سارت على مهل، وتابعت السير على طول الضفة ثم دخلت الغابة من الجهة اليسرى ورمقتنا بعينيها عبر الغسق قبل أن تتوارى من أمامنا.

قال الرجل ذو البقع الملونة بعصبية ظاهرة:

ـــ لو حاولت الصعود إلى المركب لأطلقت عليها الرصاص، ولقد جازفت بحياتي كل يوم خلال الأسبوعين الأخيرين كي أمنعها من دخول المترل، فدخلت ذات يوم واختلقت شجاراً بسبب تلك الأسمال البالية التي جمعتها من المستودع لترقيع ثيابي،

فلم أكن محتشم اللباس، لقد تحدثت مع كورتز حول هذا الموضوع بغضب شديد لمدة ساعة، تومئ إليّ بين حين لآخر، ومع أنني لم أكن أدرك لهجة هذه القبيلة، إلا أنه ومن حسن الحظ فإن كورتز لم يكن مبالياً بهذا الأمر، فقد كان مريضاً جداً، إنني لم أدرك بأن أي شيء ممكن أن يكون ذا جدوى، لقد انتهى كل شيء الآن.

سمعت في هذه اللحظة صوت كورتز العميق من وراء الستارة! أنقذته ؟

ــ تعني إنقاذ العاج.

ــ لا تخبرني أي شيء، أنقذني.

ــ لماذا على أن أنقذك؟

ــ إنك تعطل مخططاتي الآن، مريض! مريض! لست مريضاً كما تريد أن تعتقد، غير مهم، سأحمل أفكاري بعيداً، ولكن سأعود، سأبيّن لك ما يمكن فعله، أنت ستشاركني ومعلوماتك التافهة ستشاركني ....سأعود.... سأ...

خرج المدير، وإنه لشرف لي أن يتأبط ذراعي ويقودني جانباً، ويقول:

ــ إنه ميت، ميت فعلاً، لا بد من إرسال زفرة آسف على حياته، ولكن ما من داعٍ للأسف المتواصل، وأردف: لقد بذلنا كل ما في وسعنا من أجله، أليس كذلك؟

وما من ضرورة لتمويه الحقيقة، فالأضرار التي سببها كورتز للشركة كانت أكثر بكثير من الفوائد التي قدمها لها، وهو لم يدرك بأن الوقت لم يكن مناسباً للقيام بعمل نشيط قوي.

الحذر! الحذر! ذلك هو مبدأي، فيجب أن نكون حذرين الآن، فالمقاطعة مغلقة بالنسبة لنا لوقت معين على الأقل، ولكن يا للأسف وعلى كل حال سوف تسوء حالة الحركة التجارية، فأنا لا أدرك وجود كمية وافرة من العاج معظمها من البقايا

المتحجرة ولا بد من إنقاذها مهما كانت الظروف، ولكن انظر كيف يبدو الوضع ــ ولماذا؟ ذلك لأن النهج المتبع غير صحيح.

قلت وأنا انظر إلى الشاطئ.

ــ هل أنت الذي تدعوه نهجاً غير صحيح؟

فاستفهم بحيوية:

ــ بلا شك، وأنت ماذا تقول؟

توقف قليلاً ثم تمتمت:

ــ ما من منهج البتة.

فقال مبتهجاً:

ــ تماماً، لقد توقعت ذلك، إنه يفتقر إلى حكم متكامل ومن واجبي التنويه إلى هذا الأمر.

فقلت:

ــ آه، ما اسم هذا الشخص؟ سيقدم لك صانع القرميد تقريراً واضحاً، سهل القراءة.

بدا مرتبكاً لفترة وجيزة وتراءى لي بأنني لم أستنشق هواءً فاسداً كهذا إلاّ للمرة الأولى في حياتي، فانتقلت بأفكاري إلى كورتز من باب الارتياح لأؤكد:

ــ إن السيد كورتز رجل رائع يستدعي الاهتمام، حملق بي ورمقني بنظرة باردة عميقة ثم قال:

ــ لقد كان .

قال ذلك وأدار ظهره لي:

لقد ولّت ساعتي المفضلة لأجد نفسي رهينة لكورتز ولطرائقه المنهجية حصراً بحيث يبدو الوقت غير ملائم.

لقد كنت على خطأ، آه! بدا وكأنه شيء ما، عليك أن تمتلكه كاختيار للكوابيس.

لقد كان عليّ أن أعود للوحشة فعلاً، لكن ليس للسيد كورتز والذي أعترف بأنه كان جيداً ولكنه مدفون، وبدا لي ولفترة وجيزة وكأني مدفون في مقبرة كبيرة مليئة بالأسرار، فشعرت بثقل لا يُطاق يجثم على صدري برائحة التراب الرطب، بالحضور غير المرئي للفساد المنتصر، بظلمة ليل لا يمكن اختراقها، ربت الروسي على كتفي وسمعته يفأفأ بشيء ما:

ــ أيها الأخ البحار، لا يمكن إخفاء ذلك ــ معرفة الأمور التي تؤثر في سمعة كورتز.

تريثت، فبالنسبة له، لم يكن السيد كورتز مدفوناً في قبر،فهو يعد السيد كورتز واحداً من الأشخاص الخالدين، فقلت أخيراً:

ــ لا بأس، تكلم، ففي كل الأحوال السيد كورتز صديقي، تابع حديثه بسلوك شكلي حيث لم نكن نمارس مهنة متماثلة، وحبذا لو أنه احتفظ بالمسألة لنفسه دون الاهتمام بالعواقب، وحسب رأيه فهناك نية سيئة ناشطة تستهدفه على حساب مصلحة هؤلاء الرجال البيض حيث أن ..... فقلت وقد تذكرت حواراً كان قد ترامى إلى مسمعي:

ــ يعتقد المدير بأنه يجب أن تشنق.

لقد أبدى اهتماماً ملحوظاً إزاء هذا الذكاء، فرأيت اهتمامه ضرباً من التسلية، فقلت بنبرة جدية:

ـــ من الأفضل أن أنسحب من هذا الطريق بكل هدوء، ولن يكون بوسعي مساعدة كورتز بعد الآن، ولسوف يعذرونني من أجل ذلك، ومن سيوقفهم؟ وإن ثمة مقراً عسكرياً على بعد ثلاثمائة ميلاً من هنا. فقلت:

ـــ لا بأس، ومن الأفضل أن ترحل ما دمت تعرف في الجوار بعض الأصدقاء بين المتوحشين.

فقال: كثيرون.

ثم انتصب واقفاً يعض على شفتيه:

ـــ إني لا أريد أن يُصاب أي من البيض بأذىً هنا، وبالطبع فلقد كنت أفكر بسمعة كورتز ـــ ولكنك أخ وبحّار ـــ فقلت بعد لحظة:

ـــ حسن، إن سمعة السيد كورتز على خير ما يرام بالنسبة لي.

قلت ذلك و لم أعرف مدى مصداقية ذلك القول:

بدأ يخبرني بصوت خافت، أن السيد كورتز هو الذي أمرني بشن هجوم على المركب، فقد كان يكره أحياناً فكرة إبعاده عن هذا المكان.... وبعد ذلك... ولكني لم أدرك هذه الأمور، فأنا رجل ساذج، وقد كان يعتقد بأن الخوف سيستبد بك، وأن تستسلم معتقداً بأنه ميت، لم أستطع أن أوقفه، آه! لقد أمضيت وقتاً مرعباً خلال هذا الشهر فقلت: ـــ حسن جداً، إنه على ما يرام الآن.

تمتم وقد بدا غير مقتنع:

ـــ ز....ز...ع....م...

فقلت: شكراً. ردّ عليّ بإلحاح وقلق:

ـــ سأبقي عيني مفتوحتين ولكن بهدوء، ما رأيك؟

سيكون الأمر مخيفاً لسمعته إذا ما تواجد أي شخص هنا.

وعدته بالتزام السرية التامة فقلت:

ـــ لديّ زورق طويل وثلاثة زملاء سود، ينتظرونني على مسافة غير بعيدة من هنا، إني معطل الآن، هلاّ أعطيتني بعضاً من خرطوش (Martini- Henry)، لبّيت الطلب بسرية تامة، أخذ حاجته ثم غمزني مشيراً إلى التبغ فقال:

ـــ بين البحّارة التبغ الإنكليزي الجيد، أتعرف؟

ولّما وصل إلى باب حجرة موجه الدفة قال:

ـــ ألديك زوج أحذية أنت بغنىً عنه؟

قال ذلك ورفع ساقه: ـــ انظر!

بدا نعل حذائه مربوطاً بخيط ذي عقد متخذاً شكل صندل تحت قدميه العاريتين، فنزعت من قدمي زوجاً قديماً لينظر إليه بإعجاب قبل أن يطويه تحت ذراعه وكانت إحدى جيوبه حمراء لامعة مليئة بالخرطوش، وفي الجيب الآخر الأزرق اللون ظهر كتاب "تحقيق تاوسون" .... الخ ...الخ، فقد كان يعتقد بأنه مزود بالسلاح الكامل بشكل رائع ليخوض معركة جديدة في هذا القفر الموحش. قال:

آه، لن التقي أبداً... أبداً، مثل هذا الإنسان مرة أخرى، بودي لو تسمعه يروي الشعر، لقد كان يروي قصيدة من نظمه، سحرني بأشعاره تلك. فقلت:

ـــ وداعاً! صافحني وتوارى في الظلام.

كنت أسأل نفسي أحياناً، هل التقيت فعلاً برجل مثله؟ أمن المعقول أن يلتقي الرجل مثل هذه الظاهرة الاستثنائية؟

خطر على بالي، عندما استيقظت بعد منتصف الليل انذار مع تلميحه بالخطر المحتمل وقوعه، حصل ذلك تحت جنح الظلام السيئ الطالع، بحيث وجدت نفسي مضطراً إلى إلقاء نظرة فاحصة حولي، وقع بصري على نار متأججة تنبعث من على التلة وقد توهجت بشكل متقطع، زاوية معوّجة بحجر المحطة، فرأيت أحد وكلاء الشركة مع مجموعة من رجالنا السود مسلحين، من أجل إبقاء الحراسة على العاج، ولكن عمق الغابة والومضات الحمراء الموجة وهي تغوص وترتفع من الأرض عبر أعمدة دائرية مبعثرة من السواد الحالك، تُظهر من بعيد الموضع الصحيح للمخيم، حيث كان عشاق السيد كورتز، يتوسلون إليه بصلواتهم الطفولية، ساهرين طوال الليل حتى طلوع الفجر.

ترامت إلى مسمعي دقات الطبول الكبيرة، دقات ضخمة، لتملأ الفضاء بالإرتجاجات المكتومة والذبذبات المملة، وتعالى صوت متواصل رقيب لمجموعة من الرجال ينشدون، كل يناجي نفسه مردداً بعض التعاويذ السحرية، فبدت منبثقة من أعماق الغابات السوداء أشبه بالطعن المنبعث من جوف خلايا النحل، وقد أثّرت في حواسي شبه اليقظة وحذرتها تماماً كما يفعل الأفيون في تخديرة المسكن، وأعتقد بأنني قد غفوت فوق هذا السياج إلى أن انفجر صراخ متقطع، كنوبة جنون عبر ضجيج مكبوت، فأيقظني فجأة وأنا أرتجف من شدة الصدمة ومن شدة الخوف، وسرعان ما توقفت الصرخات المرعبة، واستمر الصوت الخافت محدثاً تأثيراً أشبه بتأثير الصمت

المهدىء المسموع في آن واحد، ألقيت نظرة خاطفة على الحجرة الصغيرة لأبصر نوراً ينبعث من الداخل، ولكنّ السيد كورتز لم يكن موجوداً هناك.

ـــ أعتقد بأنه كان عليّ أن أطلق صرخة فيما لو كنت صدقت عينيّ ولكني لم أصدقهما في بادئ الأمر، إلا أن ذلك الشيء يبدو مستحيلاً جداً.

لقد انهارت أعصابي بالفعل بحكم هذا الرعب الذي حلّ فيّ فجأة... رعب حقيقي تماماً، لا علاقة له بأي شكل خاص متسم بخط فيزيائي، وما الذي جعل هذا الانفعال فوق العادة ـــ على هذا النحو؟ لقد تلقيت صدمة معنوية. ولقد حصل ذلك كما لو أن شيئاً ما وحشي المظهر لا يمكن أن تجعله في غاية من القبح، فقد انقضّ عليّ بشكل غير متوقع، ولكن لم يستغرق هذا الحدث أكثر من جزء واحد من الثانية، ثم ساد بعد ذلك شعور عادي مألوف في غاية الخطورة، شعور بإمكانية حدوث انقضاض أو مجزرة أو ثمة شيء ما من هذا القبيل كان مقبولاً أو مرضياً عنه، وبالفعل فقد جعلني أشعر بالأمان مما لم يجعلني أرسل طالباً النجدة.

كان مندوب الشركة يقبع في معطف واسع، نائماً على كرسي على ظهر المركب بعيداً عني ثلاثة أقدام و لم يوقظه هذا العويل الحاد،فكان يشخر بشكل خفيف، فتركته مسترسلاً في نومه ووثبت نحو الشاطئ.

لم أحاول إزعاج السيد كورتز فلقد أُمرت بذلك، ولقد كتب إليّ بأنه يجب أن أكون مخلصاً للكابوس الذي اخترته، فقد كنت قلقاً بشأن التعامل مع شبح بمفردي، ولا أعرف حتى هذا اليوم لماذا كنت حسوداً جداً في مشاركته أي شخص فيما يتعلق بالظلمة الخاصة بتلك التجربة.

شاهدت حين وصلت الضفة ــ أثراً كبيراً عبر الأعشاب، وما زلت اذكر ذلك الابتهاج الشديد الذي غمرني فقلت لنفسي:

ــ إنه لا يستطيع أن يمشي، إنه يزحف على أربعته، لقد حصلت عليه، فقد كان العشب مبتلاً بالندى،فاندفعت أخطو مسرعاً وهيأت قبضة يدي ــ تخيّلت نفسي أهجم عليه وأضربه ضرباً مبرّحاً، لا أعرف، فقد راودتني أفكار حمقاء، فالربط بين المرأة العجوز وقطتها اقتحم ذاكرتي عنوة، تماماً كما يفعل أي شخص غريب لا علاقة له بقضية كهذه وقد رأيت رتلاً من المهاجرين يتدافعون في الهواء من (Wichesters) ليثبتوا وضعهم، ففكرت بألا أعود ثانية إلى المركب،إذ تصورت نفسي أعيش في الغابة وحدي بسلام، أعيش بمفردي ريثما يتقدم بي العمر وأشياء سخيفة كهذه كما تعرف، ولا زلت أتذكر كيف خلطت بين قرع الطبل ونبضات قلبي، وقد كنت مسروراً بهذا الانتظام الهادئ.

ما زلت اقتفي الآثار، ثم توقفت لأصغي، وقد كان الليل صافياً جداً بفضاء أزرق قاتم، يتوهج بالندى وضوء النجوم لتبدو الأشياء السوداء جامدة تماماً، فاعتقدت بأنني سأصادف نوعاً من الحركة أمامي، ولقد كنت واثقاً بعجرفة من كل شيء في تلك الليلة، وبالفعل تخليّت عن اقتفاء الأثر، وركضت في نصف دائرة، وقد كنت أضحك مع نفسي فعلاً، كما لو أنني أود مجابهة ذلك القلق لتلك الحركة التي أبصرتها فيما لو رأيت حقاً أي شيء، فقد هزمت كورتز كما لو أنها لعبة صبيانية.

وصلت إليه وهو لم يحس بقدومي، وكان بودي أن أنقضّ عليه أيضاً، ولكنه نهض في الوقت المناسب لينتصب واقفاً، مهتزاً، طويل القامة، شاحب الوجه، أشبه ببخار منبعث من باطن الأرض، ثم ترنّح قليلاً ضبابياً وهادئاً أمامي، بينما اندلعت

النيران بين الأشجار ترافقها تمتمات العديد من الأصوات التي انبعثت من الغابة، ولقد أوقفته بجد، ولكن عندما واجهته بالفعل بت بأنني ثبت إلى رشدي لأرى الخطر في وضعه الطبيعي، ولّما كانت الأمور قد سويت، ولنفترض أنه أخذ يصرخ مع أنه يقف بصعوبة بالغة، ولكن ما زال قوي الصوت واندفع بنبرة عميقة:

ـــ اذهب بعيداً وواسِ نفسك.

رميت نظرة إلى الوراء، فقد كنا على بعد ثلاثين ياردة عن أقرب موقع نار وثمة قامة سوداء انتصبت واقفة على رجلين سوداويتين طويلتين، تلوّح بذراعين سوداويين طويلين عبر الوهج، وأظن أن لهذه القامة قرنيين مثبتين على رأسها ـــ قرنيين يشبهان قرني الظبي، أشبه بمشعوذ أو ساحر، ولكن وبدون أدنى شك إنها أشبه بعفريت حقيقي، فهمست له:

ـــ أتعرف ماذا تفعل؟

رفع صوته ليجيبني بكلمة واحدة:

ـــ تماماً!

بدا لي الصوت متباعداً مع أنه مرتفع، إنه أشبه بهتاف تحية عبر بوق كلام، فقلت لنفسي: لو خلق شجار لقضي علينا، فمن الواضح بأن الأمر لا يتعلق بملاكمة بالأكف، ولكن وعلى الرغم من البعد عن الطبيعة البشرية كان لا بد من مقارعة ذلك الشبح، لقد كان ذلك معاناة من التشرد والتألم فقلت:

ـــ سوف تنتهي ـــ تنتهي كلياً، فكما تعلم، يتلقى المرء ومضة من الإلهام، لقد قلت ما هو صحيح، مع أنه من غير المعقول أن يفقد حياته بشكل ميؤس لا علاج له،

أكثر مما هو عليه الآن، وفي هذه اللحظة بالذات عندما تتوطد الصداقة بيننا لتبقى وتستمر للأبد وحتى ما بعد النهاية، فتمتم مردداً:

ـــ لديّ مخططات لا تُحصى. فقلت: نعم، ولكن إذا ما حاولت أن تصرخ فإني سأحطم رأسك.

إلا أنه لم يوجد في متناول يدي أية عصاً أو حجر، فتابع مصححاً: سأقتلك خنقاً وسأقضي عليك نهائياً وللأبد.

ترافع بنغمة ممزوجة بالشغف لتحقيق شيء لا يُرجى تحقيقه بحيث جعل الدم يتجمد في عروقي:

ـــ والآن، من أجل هذا النذل الأحمق!

فقلت مؤكداً: إن نجاحك في أوروبا مضمون تماماً. لم أعنِ قتله خنقاً كما تعلم، فذاك أمر لا يحتاج إلى كثير من العناء، بل حاولت القضاء على فتنة سحرية، تعويذة شيطانية، ثقيلة الوطأة، بكماء تتعلق بالقفر الموحش الذي تجرفه على ما يبدو إلى صدرها، عديم الشفقة، باستنهاض غرائز منسية وعنيفة بواسطة عواطف غرامية وحشية، فبت مقتنعاً بأن التعويذة وحدها قد جذبته بعيداً إلى مسافة الغابة، إلى الأجمة، حيث النار تتوهج ودقات الطبول وبنغمة التعويذات الغريبة المخيفة، وهكذا قد خدع، روحه غير الشرعية وراء التطلعات المشروعة، وهكذا ألا ترى بأن رعب الوضع هذا لا علاقة له بتحطيم رأسه، مع أنني أملك حساً حياً جداً بشأن ذلك الخطر أيضاً، وكان عليّ أن أتعامل مع كائن لا يمكن مناداته بأي حال من الأحوال صعوداً ونزولاً وكان عليّ ـــ كالزنوج ـــ أن أستحضره، أستحضره، بنفسه، استحضار انحطاطه المنتشي، ولعلّ ذلك

شيء لا يُصدق، فما من شيء دونه أو فوقه وأنا أعي بأنه قد رفس نفسه وجعلها تائهة في الأرض.

اللعنة على الإنسان! لقد ركل الأرض وجزّأها إلى قطع، وقد كان بمفرده وأنا قبلاً منه لم أكن أعرف فيما لو كنت واقفاً على الأرض أم سابحاً في الفضاء، لقد أخبرتك بماذا قلنا ــ مكرراً العبارات التي تلّفظنا بها ــ ولكن أكان ذلك جيداً؟ لقد كانت بمثابة كلمات يومية مألوفة، أصوات غامضة، أصوات متبادلة عند كل فجر في يوم ما من الحياة.

ولكن ما معنى ذلك؟ ففي رأيي أن إيحاء الكلمات الترويجي المرعب تكمن وراءهم، وبدا مسموعاً خلال رؤية الأحلام، خلال التفوه بالعبارات عند حدوث الكوابيس.

الروح! إذا ما وجدرجل قد خاض معركة مع روح! أنا ذلك الرجل ولكني لم أكن أخوض جدالاً مع الجنون.

صدقني أولاً تصدقني ــ لقد كان يتمتع بذكاء صافٍ جداً ــ مركزاً حول نفسه بكثافة مريعة ــ إن هذا صحيح، وبدا بالإضافة إلى ذلك صافياً، وهكذا كان حظي الوحيد بالتأكيد، فقتله هناك ليس بالعمل الجيد، ولا بدّ من حدوث ضوضاء لا يمكن تجنبها إلاّ أن روحه كانت مجنونة، وبما أنه يقيم بقفر موحش بمفرده، فإنها تبدو كامنة في داخله بحق السماء، وأود أن أخبرك بأنها قد أصيبت بالجنون بسبب خطاياي على ما أعتقد ــ فقد شاهدت ذاتي عبر تلك المحنة القاسية، وما من بلاغة قادرة على أن تكون مهلكة لإيمان أي جنس بشري كالانفجار النهائي الخاص، بالإخلاص.

لقد كان يتصارع مع نفسه أيضاً، أبصرت ذلك وسمعته، ورأيت اللغز الذي لا يمكن تصوره، لغز الروح الذي يجهل أي وازع بالإيمان أو خوف، حتى التراع الأعمى مع ذاته، فاحتفظت بعقلي سليماً ولكن ما إن شاهدته ممداً على الفراش حتى مسحت العرق الذي يتصبب من جبيني، بينما أخذت ساقاي ترتجفان كما لو أنني حملت نصف طن على ظهري، نازلاً من تلك الهضبة، ومع ذلك فقد ساعدته وكنت عوناً له، فوضع ذراعه العظمية حول عنقي والذي لم يكن أثقل من طفل.

عندما رحلنا بعد ظهر اليوم التالي، اندفع من الغابات فجأة حشد غفير من هؤلاء الذين كنت أشعر بوجودهم، والذين كانوا مختبئين وراء الأشجار ليتدفقوا ثانية ويملأوا الأرض المقطوعة الشجر، ليغطوا المنحدر بكتلة من الأجسام العارية اللاهثة البرونزية، فاتجهت بالمركب صعوداً لمسافة قليلة، ثم انقطعت نزولاً، في حين كان ألفان من العيون تطارد المركب تصارع شيطان النهر المتوحش وهو يلطم المياه بذيله المريع، وينبعث في الوقت نفسه الدخان الأسود في الفضاء، وفي مواجهة العنف على طول النهر وقف ثلاثة رجال وقد كسوا جلدهم بالتراب الأحمر البّراق من قمة الرأس وحتى أخمص القدمين، يذرعون المكان جيئة وذهاباً وبلا توقف، وعندما أصبحنا جنباً إلى جنب مرة أخرى وقفوا مقابل النهر يدوسون بأقدامهم ويومؤن برؤوسهم بقرونها، يتمايلون بأجسادهم القرمزية وقد قذفوا إلى النهر الشيطاني رزمة من الريش السوداء، جلداً أجرب بذيلٍ متدلٍ قذفوا شيئاً يشبه اليقطين المجفف، وكانوا يصرخون بشكل دوري بمجموعة من الكلمات الغريبة المذهلة، لا تمت بصلة إلى أية لغة بشرية، بالإضافة إلى تمتمات عميقة لحشد غفير، سرعان ما انقطعت لتبدو كأنها استجابة لبعض الابتهالات الشيطانية.

حملنا كورتز إلى حجرة موجه الدفة، حيث يوجد المزيد من الهواء وما إن مدّدناه على الأريكة حتى أخذ يحدّق عبر مصراع النافذة المفتوحة حيث كان يوجد تيار من الأجساد البشرية، وكانت ثمة امرأة شاحبة الجذور وقد اعتمرت خوذتها واندفعت نحو هاوية النهر، رفعت يديها وصرخت بشيء ما، في حين تجاوب الحشد برمته مع هذا الهتاف فتعالى زئير جماعي سريع ومرهق، فسألت:

ـــ أتفهم هذا؟

التزم بالنظر إليّ بنظرات متقدة بمزيج يعبر عن الحقد والكراهية ولم يجب على سؤالي، ولكني لمحت ابتسامة، ابتسامة ذات معنى لا يمكن تحديده، ترتسم على شفتين مجردتين من أي لون، وبعد لحظة اختلطنا بالنشيج، فقال ببطء وهو يلهث كما لو أن الكلمة انتزعت منه بواسطة قوة خارقة: ألست أنا؟ سحبت تلك الصافرة، فعلت ذلك لأنني رأيت المهاجرين على ظهر المركب يشرّعون بنادقهم معتقدين بأنهم يقومون بمزحة مسلية، وما إن دوت صرخة فجائية حتى انطلقت حركة تنم عن ذعر مذل عبر هذه الكتلة من الأجساد المكدسة فوق بعضها البعض، فصاح رجل يقف على ظهر المركب

ـــ لا، لا تخيفهم، ليذهبوا بعيداً.

أخذت أسحب سلك الصافرة مرة تلو المرة، فتبعثروا وركضوا وقفزوا وجثموا خائفين، منحرفين، محاولين تجنب الرعب المتطاير الناجم عن صوت الصافرة، في حين انبطح الشباب الثلاث الحمر على الشاطئ كما لو أنهم أصيبوا برصاصات أدّت إلى موتهم، فيما عدا المرأة البربرية الرائعة التي جفلت وفتحت ذراعيها العاريتين وراءنا بشكل تراجيدي فوق النهر المعتم المتوهج، قام الحشد بعد ذلك بتنفيذ فرحتهم المسلية على ظهر المركب، ولم أشاهد حينذاك سوى الدخان.

كان التيار الأسمر يندفع مسرعاً بعيداً عن قلب الظلام ليحملنا صوب البحر بسرعة تضاعف سرعتنا الحالية، لتنسحب وتنسحب كجزر المياه، بعيدة عن قلبه إلى داخل بحر الزمن المتصلب، في حين المدير هادئاً بحيوية متدفقة، خالياً من القلق، فرمقنا بنظرة تنم عن التفهم والرضا: ـــ لقد جرت الأمور كما ينبغي تماماً.

أبصرت الزمن يتقدم عندما تُركت بمفردي في ذلك الجزء من المنهجية غير المعلنة، رمقني المهاجرون بنظرة حاقدة وكان عليّ أن أتكلم وأنا محسوب في حكم الميت. وبدا لي غريباً جداً كيفية قبولي لمثل هذه الشراكة غير المتوقعة، فاختيار الكوابيس أرغمني على ارتياد هذه اليابسة الضبابية حيث غرتني هذه الأشياء الحقيرة التافهة.

تحدث كورتز.. صوت! صوت! دوّى بعمق حتى النهاية، فأحيا قوته ليواري طيات بلاغته الرائعة، ظلام قلبه الدامس.

آه، لقد قاوم وقاوم! ولقد اقتحمت الصور الشبحية دماغه المرهق، صور الغنى والشهرة حيث تجري بخنوع وإذلال حول موهبة غامضة من التعبير النبيل، ولقد كانت خطيبتي ومقري ومهنتي وأفكاري، كانت كلها مواضع لبيانات طارئة منوطة بمشاعر فيها السمو والرفعة، وقد كان طيف كورتز الأصلي يرتاد جانب الدّجال الأجوف، وكان قدره أن يدفن فوراً ضمن قالب من الأرض العتيقة على حالتها البدائية، وكلاهما الحب الشيطاني والكراهية الخارقة للطبيعة وكراهية الأسرار الغامضة لمن كانا يخترقان ويقاومان لامتلاك الروح المشبعة بالعواطف البدائية، المتعطشة إلى شهرة كاذبة إلى تمييز خادع في كل مظاهر القوة والنجاح.

لقد كان يبدو في أحيان طفولياً بشكل مهين، وكان يتمنى لو يلتقي ملوكاً عند محطات السكك الحديدية لدى عودته من (اللامكان) كي يقوم بإنجازات عظيمة، فقال:

ـــ تبرهن لهم بأنك تملك في داخلك شيئاً ما، مفيداً حقاً وسيتصرفون بعد ذلك بمهارات لا حد لها، وعليك الاهتمام بالتأكيد بالواقع القويم على الدوام.

ـــ إن الألسنة المنبسطة الطويلة التي تشبه اللسان المنبسط الواحد الرئيسية التي تشبه بعضها البعض تماماً، تنزلق قرب المركب مع العدد الوفير من الأشجار المنتقلة من جيل إلى جيل، تحاول البحث عن هذه القطعة المجزأة، المكسوة بانسجام هذه القطعة من الكون الآخر، وهو رائد التحول والغزو ورائد الأعمال التجارية والمذابح الجماعية والبركان، نظرت إلى الأمام وأنا أوجه الدفة، قال كورتز فجأة ذات يوم: ـــ أغلق الدفة فلا أستطيع أن احتمل النظر طويلاً إلى هذا.

فعلت ذلك، فخيّم سكون مطبق ثم صرخ في صميم القفر الموحش المخفي: آه، ولكني سأعتصر قلبك.

انفجرنا تماماً، كما كنت قد توقعت ـــ وكان علينا القيام ببعض الإصلاحات عند راس الجزيرة وكان هذا التأخير أول سبب مباشر لزعزعة ثقة كورتز ـــ فقام ذات صباح بإعطائي رزمة من الأوراق وصورة فوتوغرافية، وكان قد ربطها جميعها بشريط حذائه وقال:

ـــ احتفظ بها من أجلي، فإن هذا المجنون الأحمق يعني المديرـــ لقادر على فتح صناديقي وانتزاع أغراضي عندما لا أكون هنا.

رأيته ظهراً حيث كان مضطجعاً على ظهره،وقد اغمض عينيه فانسحبت بهدوء ولكني سمعته يتمتم:

ـــ عش مستقيماً .... أو مت ... مت!

أصغيت،ولكنه لم يضف المزيد، أفكان يكرر حديثه أثناء نومه أم بعض كلمات من عبارة لمقالة وردت على صفحة جريدة؟ وقد كان يكتب لبعض الصحف، وكان ينوي متابعة ذلك (ومن الواجب أن أكتب لأعرض أفكاري، إنه واجب).

كان في ظلام لا يمكن اختراقه، نظرت إليه كما لو أنك تبصبص على رجل مضطجع عند أسفل هوة، حيث لا تظهر الشمس أبداً، إلا أنه لم يكن لديّ الوقت الكافي للاهتمام به، فقد كنت أساعد سائق المحرك في تقطيع الأسطوانات المثقوبة، وفي تقويم قضيب الربط الخاص المنحني وفي أمور أخرى، ولقد كنت أتواجد بين كومة من الأوساخ الكريهة والأضابير وأجزاء معدنية وبراغي ومسامير وغيرها ومفاتيح ومطارق ومثقاب وأشياء أمقتها بشدة، وهي تزعجني فعلاً، وقصدت إلى كير الحداد الصغير والذي كان لحسن الحظ خارجاً.

وصلت إليه ذات مساء وبيدي شمعة، وقد أصبت بالدهشة عندما سمعته يقول: إنني أضطجع هنا في الظلام منتظراً الموت.

قال ذلك وكان الضوء لا يبعد أكثر من قدم واحدة عن عينيه، فوجدت نفسي مضطراً لأن أتمتم:

ـــ آه، هراء.

قلت ذلك ووقفت منحنياً فوق كما لو أني ثابت في مكاني، وقد طرأت تغييرات كثيرة على ملامح وجهه لم أشاهدها من قبل، وآمل ألا أشاهدها مرة أخرى،

لم أكن متأثراً بل كنت مفتوناُ، كان الأمر أشبه بحجاب ممزق، ولقد أبصرت ذلك على الوجه العاجي تعبيراً لكبرياء مبهمة، لقوة غاشمة، لرعب مذل، ليأس شديد يصعب شفاؤه. أعاش حياته مرة أخرى في كل تفاصيل الرغبة؟ بإغرائه وخضوعه واستسلامه خلال لحظة عظيمة لمعرفة كاملة، وقد صرخ هامساً عند مشاهدة صورة ما، ولدى مشاهدة شيئاً ما، ولقد صرخ صرختين، صرخة لم تكن أكثر من أنين:

ـــ الرعب! الرعب!

أطفأت الشمعة وغادرت الحجرة، إذ كان المهاجرون يأكلون في غرفة الطعام، فأخذت مكاني مواجهاً للمدير الذي رفع عينيه ليرمقني بنظرة استفسار تمكنت من تجاهلها بنجاح، تراجع إلى الوراء هادئاً، وقد علا شفتيه ابتسامة تجسد أعماق حفاوته في حين كانت مجموعة من الذباب الصغير تحوم حول المصباح فوق الوجوه والأيدي،وفجأة أطل صبي المدير برأسه الأسود من المدخل وقال بنبرة تنم عن احتقار لاذع: ـــ السيد كورتز ـــ إنه ميت.

اندفع جميع المهاجرين إلى الخارج ليروه، ولكني بقيت في مكاني أتابع طعامي، وأعتقد بأهم عدّوني قاسياً لا أراعي شعورهم،ولكن على كل حال لم آكل كثيراً، كان يوجد ضوء مصباح هناك ، ولكن الظلام كان بهيمياً موحشاً في الخارج، و لم أتجه بعد ذلك نحو الرجل البارع الاستثنائي الذي لفظ حكمه حول مغامرات روحه على الأرض، ثم تلاشى الصوت ولكن ماذا بقي هناك؟

ولكني كنت مدركاً بالطبع أنه في اليوم التالي، كان المهاجرون قد دفنوا شيئاً في حفرة موحلة، وسيقومون بدفني بعد ذلك، ومهما يكن من أمر فإنني لم أحاول الانضمام إلى كورتز هنا أو هناك و لم أفعل، وبقيت أحلم بالكابوس حتى النهاية لإظهار

إخلاصي لكورتز مرة أخرى، إنه القدر! قدري! وما الحياة إلا شيء تافه، ذلك النسق المبهم الخاص بالمنطق الظالم لأجل هدف تافه، ولعلّ كل ما يمكن أن تحصل عليه بعض المعرفة لنفسك والتي تأتي متأخرة، مجموعة من حالات النوم. فقد خضت صراعاً مع الموت،وهو النزاع الأقل إثارة الذي يمكن أن تتخيّله،لقد حدثت في حياة غير محسوسة، وما من شيء تحت القدمين، وبدون رغبة جامحة بالنصر، وبلا خوف شديد من الهزيمة، ضمن مناخ سقيم من الشك الفاتر، ودون الاعتقاد الكامل بحقك الشخصي وبحق عدوك بنسبة أقل، وإذا ما كان هذا هو نمط الحكمة النهائية، فهذا يعني بأن الحياة هي الأحجية الأعظم في أي شأن يمكن أن نفكر به.

اتخذت قراراً قاسياً بشق النفس بآخر فرصة لأنطق به، ولقد اكتشفت أنه لم يكن لديّ شيء لأقول، ولعلّ هذا السبب الذي يجعلني أجزم بأن السيد كورتز رجلٌ مقبولٌ، إذ كان لديه شيء ما ينوي قوله وقد قاله، ومنذ أن أمعنت إلى الحافة بنفسي استطعت أن أفهم الشكل الأفضل لمغزى نظرته الثاقبة، بحيث لا يمكن رؤية لهيب الشمعة، ولكن الفسحة كانت واسعة بما فيه الكفاية كي تفهم الكون بأسره، وقد بدت نظرته ثاقبة كي تخترق جميع القلوب التي تنبض في الظلام،ولقد اتخذ قراراً وأصدر حكماً: ــ الرعب!

لقد كان رجلاً معقولاً، والأهم من ذلك كله، كان تعبيراً من نوع خاص من الإيمان المتسم بالصراحة والإخلاص والإقناع، وقد كان يمتاز بالملاحظة النابضة للتمرد بالهمس، وكان يتمتع بوجه مرعب خاص بالحقيقية المنظورة، مُحاً، مزيجاً، غريباً بين الرغبة والكراهية، و لم يكن ذلك مجرد عملي اليائس، الشخصي، الذي أتذكره بشكل أفضل، إنها رؤية رمادية دون أي شكل مليئة بالألم الجدي، علاوة على الاحتقار

اللامبالي لهذا الاضمحلال المنوط بجميع الأشياء وبالألم نفسه،لا، إنه عمله اليائس الذي عايشه على ما يبدو، وهذا صحيح! لقد قام بالخطوة الأخيرة، فقد خطا نحو الحافة في حين كنت أجر قدمي المتردد إلى الوراء، ولربما يكمن الخلاف كله هنا، وقد تكون الحكمة بكاملها والحقيقة بكاملها والإخلاص كله، وكلها جميعها ضمن لحظة الزمن الذي لا يُقدر بثمن حيث نجتاز عتبة اللامنظور، ربما، ولكني أود أن أعتقد بأن التلخيص الإجمالي هذا لا علاقة له بكلمة ازدراء مهملة، وأفضل ما فيه صرخته، أفضل شيء، لقد كان نصراً معنوياً مقابل هزائم لا حصر لها وحالات من الرعب الموحش البغيض وحالات بغيضة من الرضا، ولكن ذلك كان انتصاراً،ولهذا السبب بقيت مخلصاً لكورتز حتى النهاية، وحتى بعد أن سمعت عنه مرة أخرى، وليس صوته فحسب ولكن صدى بلاغته الرائعة التي من جانب روحه شبه شفافة كالجرف البلوري النقي.

لا، إنهم لم يدفنوني، مع أنه توجد فترة زمنية لا زلت أذكرها بشكل ضبابي برفقة مدهشة أشبه باجتياز عبر عالم لا يمكن تصوره، بحيث لا ينطوي على أي أمل أو على أي شعور من الاستياء لدى رؤية الناس وهم يعبرون الشارع مسرعين ليسرقوا بعضاً من المال من بعضهم البعض، ليفترسوا طهيهم القذر، ليتجرّعوا وبسرعة مقادير كبيرة من البيرة الفاسدة والكريهة وليحلموا بأحلام سخيفة وبذيئة، وقد انتهكوا أفكاري فقد كانوا دخلاء، إذ بدت معرفتهم في الحياة ادعاءً مغيظاً حيث كنت واثقاً بأنهم غير قادرين على إدراك الأشياء التي أعرفها، أما قدرتهم فقد كانت ساذجة على هيئة الناس العوام العاديين، وقد بدت لي عدوانية تماماً كحالات التباهي السيئة الخاصة بالجنون إزاء الخطر الأحمق، فذاك أمر لا يمكن إدراكه، ولعلني لا أملك رغبة خاصة لتنويرهم، ولكن وجدت صعوبة في السيطرة على نفسي من الضحك في وجوههم

ولعل تصرفاً كهذا يجسّد الحماقة بشكل فاضح، وقد أتجرأ لأقول بأنني لم أكن على ما يرام في ذلك الوقت، أخذت أجوب الشوارع مترنحاً مع أن هناك العديد من الأمور التي تحتاج إلى معالجة، وإني لأعترف بأن سلوكي هذا لا يمكن أن يُغتفر، ومن النادر أن أبدد حرارتي الطبيعية في تلك الأيام، في حين كانت خالتي العزيزة تحرص على رعاية قوتي،وقد بدت جميعها على جانب كبير من الأهمية،و لم تكن قوتي بحاجة وحدها إلى رعاية، بل مخيلتي نفسها كانت بحاجة أيضاً إلى تهدئة .

احتفظت برزمة الأوراق التي أعطاني إياها كورتز ولا أدري ماذا يمكن أن أفعل إزاء ذلك، قد توفيت والدته مؤخراً وكانت -كما علمت- خطيبته تعتني به، فاستدعاني ذات يوم رجل نظيف الثياب، حليق الذقن، ذو مظهر رسمي يرتدي نظارات ذات إطار ذهبي، وأجرى معي تحقيقاً، تعامل معي بلطف ودماثة بخصوص شيء ما سمّاه، الوثائق، و لم أندهش، فقد تشاجرت مع المدير مرتين حول هذا الموضوع في السابق، وكنت قد رفضت تسليم أصغر قطعة من الورق موجودة في الرزمة، وقد اتخذت الموقف نفسه مع صاحب النظارات التي أخذ يتوعد ويهدد في آخر الأمر بشكل خفي، واستطرد بحيوية مضاعفة ليقول بأن الشركة تملك الحق الشرعي بشأن أي نوع من المعلومات المنوطة بالمقاطعات التابعة لها:

ــ إن معلومات السيد كورتز حول المناطق غير المستكشفة لا بد أن تكون واسعة ومميزة نظراً لمهارته الفائقة وللظروف المؤسفة التي أحاطت به، إلا أنه....

أكدت له بأن معلومات السيد كورتز على سعتها لم تنطو على المسائل التجارية أو الإدارية، فتطرق إلى كلمة العلم مضيفاً:

ــ لا بد من اعتبار خسارة لا يمكن تحديدها لو ...الخ ...الخ

قمت بتقديم تقرير له حول إلغاء العادات المتوحشة وقد بدت الحاشية ممزقة فاستلمه مني بحماس، ولكنه قال منتقداً وهو يستنشق الهواء باحتقار بائن:

ــ ليس هو الشيء الذي تتوقع الحصول عليه.

فقلت: تتوقع شيئاً آخر؟ فثمة رسائل شخصية موجودة.

انصرف بعد أن هددني بإجراءات قانونية فيما بعد ولكني لم أشاهده بعد ذلك أبداً، إلا أن شخصاً آخراً ادّعى بأنه عم كورتز ظهر بعد يومين، وقد سيطر عليه القلق لدى سماعه كافة التفاصيل عن قريبه العزيز في اللحظات الأخيرة، وقد أخبرني بالصدفة بأن كورتز كان موسيقياً عظيماً، وقد حقق نجاحاً لا شك فيه، قال الرجل الذي كان يعزف على الأرغون، وهو رمادي الشعر يتطاير فوق قبه المعطف،وما من سبب لديّ يجعلني أشك بهذه المعلومة، وما زلت ولغاية الآن غير قادر على تحديد مهنة كورتز، فيما لو كان ــ والتي كانت الأعظم بين مواهبه التي تمتع بها، فاعتقدت بأنه رسام يكتب للصحف أو بمعنى آخر صحفياً يستطيع أن يرسم، ولكن وحتى ابن عمه ــ الذي استنشق السعوط خلال المقابلة ــ لم يستطع أن يخبرني بأنه غير قادر على تحديد موهبته تماماً، لقد كان عبقرياً على مستوى عالمي، وبهذا اتفق مع ذلك الشاب الكبير الذي ينف أنفه بمنديل قطني، ثم انصرف وقد بدا لي باضطراب الشيخوخة، حاملاً معه بعض الرسائل العائلية ومذكرات بدون أية قيمة.

حلّ أخيراً صحفي قلق ليطلّع على ما يتعلق بزميله العزيز، فأخبرني هذا الزائر بأن كورتز يتسم بالسياسة وهذا هو الجانب الشعبي له، إنه بحاجبين قرويين مستقيمين، قصير الشعر خشن،ويحمل نظارة معلقة على شريط واسع، وأسهب بأفكاره ليعترف بأن كورتز لم يكن يكتب حتى القليل ولكن ــ وبحق السماء! ما كان أروعه وهو

يتحدث، إذ كان بوسعه أن يشحن الناس كهربائياً، ولقد كان قادراً على ذلك، أقسم على ذلك بشرفي، ألا ترى؟ لقد كان مؤمناً وكان قد عوّد نفسه على أن يؤمن بأي شيء، أي شيء، وكان بوسعه أن يصبح زعيماً مناسباً لحزب متطرف فسألته:

ــ أي حزب؟

فأجابني: أي حزب!

عاد ليسألني بومضة استطلاع مفاجئة!

ــ ما الذي جعله يسافر إلى هذه الأماكن؟ هل فعل ذلك لانتمائه الحزبي ؟

فأجبته: نعم.

قلت ذلك وسلمته في هذه اللحظة بالذات التقدير الدعائي، فألقى عليه نظرة خاطفة، وكان يتمتم دون انقطاع وقال:

ــ إن ذلك شيء مفيد.

حمل التقرير الذي اختلسه وانصرف.

وهكذا ، بقي في حوزتي بقية ضئيلة من الرسائل بالإضافة إلى رسم الفتاة التي أدهشني جمالها، أعني أنها ذات تعابير جميلة مع أنني أعي بأن ضوء الشمس قد يظللنا، ولكن يتبين للناظر إليها بأنها صورة جميلة لم تعتمد على المعالجة البارعة بالضوء، ويبدو أن المعالم صادقة وطبيعية، وبدت وكأنها مستعدة للإصغاء إلى التعبير دون أي تحفظ ذهني، وبلا شك دون أن تفكر بنفسها، فقررت أن أذهب وأعيد لها صورتها وتلك الرسائل: حب، استطلاع، نعم وقد تكون بعض المشاعر الأخرى موجودة، وهذا يعني أن كل شيء يتعلق بكورتز قد أضحى بعيداً عن متناول يدي: روحه، جسده، مقره، خططه، عاجه ومهنته، و لم يبق سوى مذكراته وخطيبته، وأردت أن أتخلّى عن الماضي

أيضاً، بطريقة أو بأخرى لأتنازل عن كل ما تبقى منه في حوزتي، عن الكلمة الأخيرة المتعلقة بقدرنا المشترك، وإني لا أدافع عن نفسي، ولا أملك أي إدراك حسي واضح بشأن ما أردته فعلاً، وقد يكون الأمر نتيجة لحافز منوط بوفاء اللاوعي، أو بإنجاز تلك الحاجات الساحرة التي تتوارى بين مكنونات الوقائع الحسية للوجود البشري،ولا أدري ولا أستطيع أن أتحدث ولكني ذهبت، لقد اعتقدت بأن ذكراه هي كتلك الذكريات الأخرى المتعلقة بالميت التي تتراكم ضمن حياة أي إنسان، وثمة انطباع غامض يؤثر على دماغ الأطياف، حيث يتم ذلك خلال اختيار الدرب السريع والنهائي، ولكن وإزاء ذلك الباب المرتفع الثقيل جداً بين منازل الشارع الطويلة الهادئة والمزخرفة، والأشبه بالممر المؤدي إلى المقبرة، في حين ما زال هذا الممر في وضع جيد، شاهدته على النقالة فاغراً فمه بشراهة، كما لو أنه يود افتراس كل ما في الأرض، كل ما تحتويه الأرض من الأجناس البشرية، فقد كان يعيش قبالتي، ولقد عاش كما لم يعش من قبل، فعاش شبحاً لا يشبع ولا يرتوي من المظاهر الرائعة، من الحقائق المخيفة، ولقد كان بالطبع أكثر سوءاً من طيف الليل نفسه، وقد تدثّر بالنبل، بثنايا البلاغة البهية، ولقد بدا لي بأن الرؤيا قد دخلت معي إلى المترل: النقّالة، أشباح الحمّالين، الحشد المتوحش من المصلين المطيعين ـــ ظلمة الغابات الحزينة ـــ توهج اللسان المنبسط القائم بين المنعطفات الحالكة الظلمة:قرع الطبول ودقات متواصلة ومكتومة أشبه بنبضات القلب، وثمة تدفق منتهك وانتقامي، فإتضح لي بأن أتنحّى جانباً وأرقد وحيداً لإنقاذ روح أخرى، وإن ما تدّخره ذاكرتي مما سمعته،مما كان يقوله كان بعيداً من هنا، في حين تتحرك وراء ظهري قامات لها قرون في وهج النار داخل الغابات القائمة، وقد عادت إليّ تلك العبارات المحطمة حيث ترامت إلى مسمعي ثانية، تلك العبارات بسذاجتها

الشاذة المثيرة للرعب، فتذكرت تذمره المهين، وتهديداته المهينة، المقدار الضخم لرغباته الشريرة من دناءة وتنكيل مريع وعذاب مبرّح، عاصف هائج، عذاب روحه المرير، ولقد بدا لي فيما بعد أني أشاهده، وهو يتصرف وفقاً لسلوك هادئ عندما قال لي ذات يوم:

ــ إن هذه الكمية الكبيرة من العاج أصبحت ملكي الآن فعلاً، ولم تدفع الشركة لي ثمنها، فقد جمعتها أنا بنفسي مجازفاً بحياتي، وأخشى أن تطالب الشركة بها كأنها عائدة إليها، هم! إنها قضية صعبة، فماذا تعتقد عليّ فعله؟هل أقاوم ؟ ما أريده ليس أكثر من العدالة، فقرعت الجرس قبالة باب مصنوع من خشب الماهو غاني عند الطابق الأول، وبينما كنت أنتظر بدا لي وكأنه يحملق بي عبر اللوح الزجاجي، فبدت نظرته الشاخصة رحبة وعملاقة، نظرة حاضنة لاهثة تعتمر الكراهية للعالم بأسره وبديت كأني أسمع صرخة هامسة: الرعب! الرعب!

حل الغسق، فكان عليّ الانتظار في غرفة الجلوس ذات النوافذ الثلاثة المستطيلة من الأرض وحتى السقف، فقد بدت أشبه بثلاثة أعمدة مضيئة، في حين بدت أقدام الأثاث المنحنية المطلية بالذهب، بدت متوهجة تبعاً لانحناءات غير واضحة وبدت المدفأة الطويلة المصنوعة من الرخام ذات بياض بارد عظيم الشأن، وفي الزاوية انتصبت آلة البيانو بكتلتها الطاغية، علاوة على ومضات معتمة على الساحات المنبسطة أشبه بناووس[1] داكن مصقول، وثمة باب مرتفع فتح ثم أغلق فنهضت واقفاً. اقتربت مني، متشحة بالسواد، شاحبة الوجه، تتموج نحوي بالغسق مرتدية ثوب حداد، فقد مضى أكثر من عام على وفاته، تناولت يدي بيديها وتمتمت:

(١) حجر منقوب توضع فيه جثة الميت.

ـــ لقد سمعتك عندما كنت قادماً.

لاحظت بأنها لم تكن صغيرة جداً، أعني أنها لم تكن في سن المراهقة، وقد كان لديها القدرة الناضجة على الوفاء، بالإيمان بالمعاناة، وبدت الغرفة وكأنها قد ازدادت حلكة كما ولو أن الضوء الحزين المائي الضبابي قد التجأ إليها وانبسط على جبينها،هذا الشعر الجميل وهذا الوجه الشاحب، وهذا الجبين النقي، فبدت كل هذه الأشياء محاطة بهالة من رماد،وعبرها ترمقني عينان سوداوان لتبدو نظرات عينيها خاطفة، تنم عن ثقة عميقة، جديرة بالثقة وكانت تحمل على كتفيها رأسها الحزين كأنها كانت فخورة بذلك الحزن وأرادت أن تقول:

ـــ أنا، أنا وحدي أعرف كيف أحدُّ عليه بالطريقة التي يستحقها.

ولكن وبينما كنا نتصافح بالأيدي ارتسم على محياها الأسى المخيف بحيث أدركت بأنها احدى المخلوقات التي لا يمكن اعتبارها دمية الزمن، وبالنسبة إليها فهو لم يمت سوى البارحة، وأقسم بأن التأثير بدا قوياً بالنسبة لي بحيث تراءى لي بأنه مات فقط يوم أمس، لا بل في هذه اللحظة بالذات، فقد رأيته ورأيتها في لحظة واحدة: موته وحزنها، لقد شاهدت حزنها في لحظة موته نفسها.

أتدرك؟ لقد أبصرتهما وسمعتهما معاً، وكانت قد قالت وهي ترسل زفرة من الأعماق:

ـــ لقد بقيت على قيد الحياة!

لقد خيِّل لأذني سماع همسة واضحة، ممزوجة بنبرتها المتسمة، بالندم اليائس، همسة خاصة بلغتنا الأبدية، فتساءلت ماذا كنت أفعل هناك وقد استبد بقلبي شعور من الرعب، فكأني تعثّرت ووجدت نفسي في مكان تسيطر عليه أسرار مبهمة شرسة بحيث

لا تتناسب ورؤيا الكائن البشري، أومأت إلى الكرسي فجلسنا، فألقيت بالرزمة بهدوء على طاولة صغيرة، مدّت يدها فوقها، ثم تمتمت بعد فترة من الصمت الجنائزي:

ــ إنك تعرفه بشكل جيد.

فقلت: هناك، خارج هذا المكان، ينمو الود بسرعة، كنت أعرفه تماماً، كما يتاح لأي رجل معرفة رجل آخر.

فقالت: وكنت أنت معجباً به، فمن المستحيل أن تعرفه ولا تعجب به، أليس كذلك؟

فقلت بقلق واضح: لقد كان رجلاً استثنائياً.

استطردت، قبل أن تثبت تحديق نظرها الجذّاب والذي بدا وكأنه يترصد المزيد من الكلمات التي تتفوه بها شفتاها:

ــ كان من المستحيل أن لا....

قاطعتني بحماس، لتدفعني إلى التزام صمت ضمن جو مفعم بصمت مروّع:

أن تحبه، صحيح! صحيح! ولكن ما من أحد عرفه أكثر مما عرفته أنا ونلت ثقته النبيلة، فأنا أفضل مَنْ عرفه.

فكررت: لقد كنت أفضل مَنْ عرفه.

لربما قد صدقت في حديثها، ولكن ومع كل كلمة نطقت بها كانت الغرفة تصبح أكثر عتمة فيما خلا جبينها الأبيض الناعم بقي مشعاً بنور لا تخمد جذوته، نور الإيمان والحب، فتابعت قائلة:

ــ لقد كنت صديقه ! ، ثم كررت قولها بصوت أعلى قليلاً: ــ صديقه!

لا بد أنك كنت مادام قد أعطاك هذه الأشياء وأرسلك إليّ، فأشعر بأني قادرة على التحدث إليك، آه، يجب أن أتحدث، إني أريدك، فأنت من سمع كلماته الأخيرة، لا أعرف إن كنت ذا قيمة بالنسبة له، ليس من باب الكبرياء آه، نعم! وإني لفخور لأن أعي بأني مهتمة أفضل من أي كان على وجه الأرض.

ـــ لقد أخبرني هو نفسه بذلك، ما من أحد.

كي ...كي..

لقد أصغيت وكان الظلام يزداد سوءاً، في حين لم أكن واثقاً بأنه سلّمني الرزمة المطلوبة،وبدأت أرتاب بأنه كان يريد الاعتناء برزمة أخرى من أوراقه بعد موته، والتي رأيت المدير يفحصها تحت ضوء المصباح وكانت الفتاة تتكلم محاولة تهدئة ألمها وفقاً لتعاطفي، تحدثت كرجل عطش بحاجة إلى الماء، ولقد سمعت بأن خطبتها لكورتز كانت مرفوضة من قبل قومها، فهو لم يكن غنياً أو أي شيء من هذا القبيل، وبالواقع لم أكن أعرف فيما لو كان فقيراً طوال حياته، ولقد جعلني أعتقد بأن عدم صبره فيما يتعلق بالفقر النسبي قد نقله إلى هنا خارج بلاده.

قالت: مَنْ الذي لم يكن صديقه؟ ومن الذي سمعه يتحدث لمرة؟ فقد كان يجذب الناس حوله عن طريق إبراز مزاياهم. نظرت إليّ بإمعان ثم استطردت:

ـــ إنها هدية تدل على العظمة.

بدا صوتها المنخفض كأنه الصوت المرافق لجميع الأصوات الأخرى متسماً بالغموض، بالأسى والحزن لم أسمع مثله قط، وتموّج النهر، حفيف الأشجار المتأرجحة مع هبوب الرياح، وتمتمات الناس المحتشدة، ورنين باهت لكلمات غير مفهومة لتتعالى صراخات من على البعد، وهمس صوت صادر من وراء عتبة الظلام الأبدي، فصرخت:

ــ ولكنك قد سمعته! أتعرف!

فقلت بلهجة يأس تتجسد في قلبي، ولكني أحنيت رأسي أمام الإيمان الكامن في داخلها، إزاء ذلك الوهم العظيم والمتقد،الذي يتألف مع توهج الضوء الاستثنائي الذي يشع في الظلام، في ثنايا الظلام المستبد، و لا أستطيع الدفاع عنها و لا أستطيع الدفاع عن نفسي.

صححت حديثها بلطف رائع:

ــ يا لها من خسارة بالنسبة لي! قالت ذلك وأضافت لتمتم: ــ إلى هذا العا لم.

استطعت ــ على ومضات الغسق الأخيرة رؤية بريق عينيها بدموع ــ دموع لم تنهر ثم تابعت:

ــ لقد كنت سعيدة جداً، محظوظة جداً، فخورة جداً، محظوظة جداً، سعيدة لفترة قصيرة، أما الآن، فأنا ــ أنا شقية لآخر العمر.

وقفتْ ليبدو شعرها الجميل يلتقط ما تبقى من نور ومن بريق الذهب ووقفت أنا أيضاً، ثم تابعت بنبرة جنائزية:

ــ من كل هذه الأشياء من كل وعوده، ومن كل عظمته ومن عقله السخي ومن قلبه النبيل لم يبق شيء، لم يبق سوى الذكرى، أنت وأنا، فقلت متسرعاً:

ــ سنبقى نذكره على الدوام.

صرخت: لا من المستحيل أن تصنع كل هذه الأشياء، في حياة كتلك حيث تضحي بها بكل شيء وألا تترك الأشياء ــ الحزن فقط ــ وأنت تعلم الخطط الكبيرة التي كانت لديه، وأنا أيضاً أعرفها وقد لا أستطيع فهمها،ولكن ثمة آخرين قد عرفوها، وبشيء ما يجب أن تبقى، أقواله على الأقل ــ لم تمت.

قلت: أما كلماته فستبقى.

فهمست لنفسها: وأنموذجه، فالرجال يتطلّعون إليه، وقد سطعت طيبته في كل عمل. أنموذجه.

ـــ فقلت: هذا صحيح، أنموذجه أيضاً، أنموذجه، لقد نسيت ذلك.

فقاطعتني: ولكني لم أنس ولا أستطيع، ولا أستطيع أن أصدِّق حتى الآن، ولن يكون بوسعي أن أصدِّق بأنني لن أراه مرة أخرى، وأنه ما من شخص، مرة أخرى، وللأبد، للأبد، للأبد. مدت ذراعيها خلفاً بشكل ينطوي على التقهقر، مدت ذراعيها السوداوين وقد بدت يداها المضمومتان شاحبتين عبر لمعة باهتة وضيقة منبعثة جهة النافذة، ولن أراه وللأبد مع أنني رأيته بما فيه الكفاية، وسوف أرى هذا الشبح البليغ ما دمت حياً، ولسوف أرى أيضاً طيفاً تراجيدياً ومألوفاً، طيفاً تراجيدياً آخر، حزيناً بمباهج ضعيفة، باسطاً ذراعين سمراويين فوق وميض نهر جهنمي ـــ نهر الظلام،ثم قالت فجأة بصوت خافت جداً:

ـــ لقد مات كما عاش!

قلت والغضب يتفاعل بداخلي:

ـــ كانت نهايته جديرة تماماً بحياته.

فتمتمت: ولم أكن معه، ولعلّ غضبي يهدأ إزاء شعور مفعم بالشفقة اللامحدودة.

فغمغمت: كل شيء يمكن القيام به.

ولكني آمنت به أكثر من أي مخلوق على وجه الأرض، أكثر من أمه، أكثر من نفسه، فقد كان بحاجة إليّ، إليّ أنا، بودي لو إدّخرت كل تنهيدة، كل كلمة، كل إشارة كل لمحة.

فقلت بصوت مفعم وقد شعرت بانقباض في صدري ناتج عن قشعريرة برد: لا تفعلي ذلك.

فقالت: سامحني، لقد فُجعت بموته، ولبست ثوب الحداد طويلاً في صمت، وما من أحد قادر أن يفهمه كما فهمته أنا شخصياً وربما لم يسمعه أحد....

قلت مضطرباً: حتى الرمق الأخير، لقد سمعت آخر ما قال.... ثم توقفت مذعوراً.

تمتمت بنبرة نابعة من قلب متكسر :

أعدْ ذلك، أريد، أريد، شيئاً ما، شيئاً ما، لكي، لكي،أعيش معها.....

ـــ كنت على وشك أن أصرخ عليها:

ـــ ألم تسمعيها؟

كان الغسق يرددها بهمس مستمر حولنا، بهمس يبدو كأنه ينتفخ أشبه بالهمسة الأولى للريح المتنامي:

ـــ الرعب! الرعب!

قالت بإلحاح: كلمته الأخيرة لأعيش عليها، ألم تدرك بأنني أحببته ـــ لقد أحببته ـــ لقد أحببته!

ـــ استجمعت قواي، ولفظت ببطء:

إن آخر كلمة تفوه بها كانت ـــ اسمكِ!

سمعت تنهيدة خفيفة، ومن ثمّ توقف قلبي قليلاً، وكدت أن أفقد حياتي من هول الصدمة، ودوت فجأة صرخة مريعة، صرخة انتصار لا يمكن تخيّلها، وصرخة ألم لا يمكن وصفها بكلمات:

ـــ كنت أعلم ذلك، لقد كنت متأكدة.

كانت تعرف وكانت واثقة! سمعت نشيجها ودفنت وجهها بين يديها،وأوشك المترل على الانهيار قبل أن أتمكن من الفرار،وكأن السماء ستهبط على رأسي، ولكن ما من شيء حدث، فالسماء لن تهبط من أجل أمر تافه، وهل جاز لها أن تسقط لو أنصفت كورتز؟ فذلك حق مشروع له، الم يقل بأنه يريد العدل فقط؟ ولكني لم أستطع، لم أستطع أن أخبرها بذلك، ولقد سيطر الظلام تماماً. ليصبح حالكاً جداً ونحن برفقة بعضنا.

توقف مارلو عن الكلام، وجلس جانباً غامضاً، صامتاً ملتزماً وضعية بودا، وما من أحد قد تحرك لفترة ما، ففجأة قال المدير: لقد فاتنا الجزء الأول!

رفعت رأسي وبدا عرض البحر أسوداً بركام غيوم سوداء، في حين كان المجرى المائي الهادئ يتدفق نحو أقاصي الأرض ليتدفق بلونه المعتم تحت سماء داكنة، بدا وكأنه يمضي إلى قلب ظلام هائل!

صدر للمترجم

أولاً : أعمال وليم شكسبير

١ – هاملت .

٢ – روميو وجولييت .

٣ – أوثللو .

٤ – مكبث .

٥ – الملك لير .

٦ – العاصفة .

٧ – كما تهواها .

٨ – هنري الرابع .

٩ – اللعبة الثانية عشرة .

١٠ – أنطونيو وكليوباترا .

١١ – هنري السادس .

١٢ – يوليوس قيصر .

١٣ – تاجر البندقية .

ثانياً : الكتب العلمية

١ – القراءة والفكير ج١ .

٢ – القراءة والتفكير ج٢.

٣ – القراءة والتفكير ج٣.

٤ – علم الطب ج١ .

٥ – علم الطب ج٢ .

٦ – علم الطب ج٣ .

٧ – توربو باسكال .

٨ – معجم مصطلحات الأتمتة .

ثالثاً : روائع الأدب العالمي

١ – الإنسان والسلاح .

٢ – أوديب الملك .

٣ – ميجور بربارا .

٤ – موت بائع جوّال .

٥ – كلهم أبنائي .

٦ – مشهد من الجسر .

٧ – مزرعة الحيوان .

٨ – مأساة الدكتور فاوستس .

٩ – فولبوني (الثعلب) .

١٠– بانتظار غودو .

١١– قلب الظلام .

١٢– عربة تدعى الرغبة .

١٣– كل إنسان .

١٤– مدرسة الفضائح .

١٥– الشيخ والبحر .

١٦– نساء في الحب .

١٧– آنّا والمدن الخمسة .

١٨– قصص قصيرة .

١٩– العذراء والغجري .

٢٠– لن تخبر أبداً .

٢١– رحلة إلى الهند .

٢٢– مس ميزي .

رابعاً : تعليم اللغة

١- Life Lines

٢- Head way جزء ١

٣- Head way جزء ٢

قلب الظلام

جوزيف كونراد

